روايات





الأمبراطورة هيلينا

THE EMPRESS
Helena

٥٠ مليما

روايات عالمية

العدد رقم ٣٦٤

الأمبراطورة هيلينا

تأليف لويس دى فوهلد

ترجمة السيد وفائى

الجزء الأول : ٢٧٢ بعد الميلاد

- ١ -

كانت القناة غارقة فى سحب من الضباب الكثيف ، عندما كان الرجل الوحيد فى ذاك المكان ، يتلمس طريقه على الشاطىء الصخرى ، وهو يسب ويلعن كلما انزلقت قدمه على العشب المبتل ، المتناثر هنا وهناك كخصلات شعر قبيحة بشعة فوق رأس عملاق أصلع .

وكانت قطرات المطر تتساقط متثاقلة مترددة ، تبعث الملل فى النفوس وتضاعف من انقباضها فى هذا الجو القاتم . ولم يكن فى كل ما يحيط بالرجل ما ينعش النفس أو يثيرها . لم يكن هناك غير السأم والرطب . وهذا المطر الذى يتثاقل كرجل هرم تقدم به العمر .

- يالها من بلاد لا حياة فيها ولا أمل .

هذا ما كان يردده الرجل وهو يمسح بيده على وجهه :

- انها بلاد أقرب ما تكون الى الجحيم .

يا لتلك الفكرة الجنونية التى خرجت به فى مثل هذه الساعة ليراقب هذا الشاطىء الطويل .

لقد حذره روفوس ، الذى كان يعرف هذه البلاد حق المعرفة ، بعد أن قدر له أن يقضى ببريطانيا السبع سنوات الأخيرة . وأنه ليرثى له . ويرثى لنفسه أيضا لأنه لم يستمع الى نصحه أو يستجب لتحذيره ، بل وراح يصيح فى وجهه :

- فليكن . اذا ما كنت تخشى على قدميك من البلل ، فلتبق حيث أنت بالمعسكر تلعب النرد . لست بحاجة الى تابع . سأذهب بمفردى .

وهكذا نفذ ما عقد العزم عليه بجهالة . وخرج بعد أن حياه روفوس مشفقا عليه . ألا لعنة الله على هذا العشب . لعنة الله على هذه الأمطار . لعنة الله على هذه البلاد كلها . ماذا تجدى رقابة

هذه البقعة من هـــذا الشاطيء بحق السماء ؟ ما من عاقل يحاول أن يغزو مثل هذا البلد ، حتى ولو كان الألمان أنفسهم .

ان الخدمة فى أى حى من أحياء الراين ، تعد متعة اذا ما قورنت بالخدمة فى مثل هذه الأراضى الرطبة التى يكسوها الضباب ـ ناهيك ببلجيكا أو بلاد الغال ، ان الأمر لم يبد له كما هو الآن عنـــدما وردت الأنباء بنقله الى الخدمة فى شرق بريطانيا وانتزعته من بين خلانه فى الفيلق الرابع عشر بالحرس الامبراطورى فى ميـــلان . أو قل بمقر القيـــادة الامبراطورية السابق . لقـــد دأب القواد على الاستهانة بالأمر منذ أن رحل الامبراطور الى الشرق ـ الى مصر ، فى الحملة التى كانت تقصد تلك الملكة الصغيرة فى سوريا ، الملكة زينوبيا .

ولم يساور الضباط الشبان أى شك فيما عســـاه أن يكون الغرض من حملة أورليان . وليعللها كبار القواد بمســـالك الطرق الى الشرق والجنوب والرغبة فى السيطرة عليها ، ولكنهم يعرفون أن زينوبيا الجميلة هى السبب . كما يعرفون أن أورليان العجوز خير من يقدر الحسن والجمال .

وهكذا خلا الجو للفيلق الرابع عشر فى ميلان ، وعبث ضباطه ولهوا ماشاء لهم اللهو والعبث . الا أن صاحبنا كان يدرك فى الوقت نفســه ، ان هذه الحياة وذاك الفراغ لا يحتويان على المجال المتسع للطموح والآمال الـكبار ، وانه لا سبيل لتحقيق هذه الآمال الا بانتهاز الفرصة المواتيـــة . وقـــدر أن هـــذه الفرصة تنتظره فى بريطانيا ، القائمة على حدود الامبراطورية الشمالية . وفى الحق أنه تمادى فى آماله هـــذه حتى علق على نقله الى هذه البلاد كل رجاء ..

يا لخيبة هذه الآمال منذ البداية ! لقـــد وجد أمامه شرذمة من حثالة الرجال تطلق على نفسها اسم الفيلق العشرين ، على رأسهم قائد ينطلق لسانه بعد الكأس الثالث ، بأنه لم ينقل الى هذه البلاد الا لأنه غير مرغوب فيه فى أى مكان آخر ، انه أوليس كارينـــوس الأصلع البدين الخامل .

ـ انه الروماتزم ياولدى ، الروماتزم • انك لن تنجو منه فى هذا المناخ اللعين • لا عليك لا عليك ••

وكيف يمكن أن يجعل الضابط من هؤلاء جنودا جديرين بحمل اسم قيصر والانتساب لفيلقه العشرين . انهم خليط من الغاليين السكارى والبلجيكيين الذين لا يصلحون لشيء ••• وقلة من الألمان والأسبان والاغريق ، حثالة المجندين من كل حدب وصوب •

يا لها من بلاد •• ترى أين يكون هذا الطريق ؟ ان الانسان لايستطيع فى هذه البقعة أن يتبين شيئا أمامه لأكثر من ثلاث ياردات •

ـ يا الهى ، لقد ضللت الطريق ويا لها من ظاهرة شاذة بالنسبة لضابط ، المفروض فيه أنه يقوم بحراسة الشاطىء ضد ما يحتمل من غزو !

لقد حذره روفوس من كل هذا •• لن تجد الا صخورا وضبابا وأمطارا •• وتوقف حيث كان وقد ابتلت ثيابه ، وأحس بالمياه وقد تسربت الى قميصه ، وتأمل سلاحه قائلا :

ـ أما كان الأجدر بى أن أتركه بالمعسكر ؟

ولكنه لم يفعل ذلك لأنه أراد أن يكون قدوة حسنة لغيره • بل وما كان روفوس ليقر شيئا من هذا القبيل • ترى ماذا هو قائل عندما يراه على هذه الحال المزرية عند عودته ؟ هذا اذا قدر له أن يعود •

لقد كان البحر هناك بعيدا على مرمى النظر • وقد يصبح قريبا منه عندما تنزلق به قدمه ويسقط متهاويا على تلك الصخور مسرعا الى تلك المياه الهادرة التى يسرها أن تتلقف هذا الضابط الرومانى •

ـ قف مكانك •

ـ لقد سمع هذا الأمر يصدر اليه باللاتينية •

ـ قف حيث أنت • من أنت ؟ •

وفوجىء الضابط الرومانى ، وعقدت الدهشة لسانه •• انه

لم يكن ينتظر شيئا من ذلك على الاطلاق . أفى مثل هـذا المكان وفى مثل هذه الساعة ؟ انه فى اقليم بريطانى يبعد مئات الأميـال عن الأسوار التى تفصلهم عن قبائل الهمج من الأعداء .

من عساه يكون صاحب هذا الصوت ؟ أقاطع طريق فى مثل هذا المكان ، المقفر الموحش ؟ وبغريزة الجندى عندما يحس بالخطر ، رفع درعه بيده اليسرى وأسرع بوضـع يمينه على مقبض سيفه قائـلا ؟ :

ـ ومن تكون أنت ؟

ـ لا عليك من هـذا .. اننى فى بلدى ، أما أنت فلا . ولذلك يتعين عليك أن تجيب على سؤالى ؟

كان صاحب الصوت محتدا ، ولكنه لاحظ أنه كان صوتا رقيقا ناعما يافعا فضحك صاحبنا مجيبا :

ـ ألم يسبق لك أن رأيت ضابطا رومانيا من قبل ؟

ـ يا للسخف . أو كان من الممكن أن أتبين رتبتك فى هـذا الضباب ؟

ـ لقد كانت لاتينية صاحب الصوت سليمة ، غير أنهـا كانت مشوبة بلكنة أجنبية . ولم يجد الضابط بدا من أن يجيب قائلا :

ـ الضابط كونستانتيوس من الفيلق العشرين .

ثم استطرد قائلا وفى صوته رنة تهكم :

ـ ومن أنت بحق السماء وأين تختفى عن الأنظار ؟.

ـ هانـذا .

ثم برز من بين سجف الضباب طيف انسان غير مسلح . وتقدم كونستانتيوس على أثر ذلك بحذر خشية أن تزل به قدمه . وألقى بالدرع فوق ظهره . ثم أمسك بكتف غريمه الرقيق قائلا :

ـ دعنى أرى من تكون ؟

ووجد نفسه يتفرس فى وجه فتاة صغيرة السن، لاتكادتتجاوز السابعة أو الثامنة عشرة من عمرها . جميلة الوجه دقيقة التقاطيع متسقة القوام .

وبدأ يضحك قائلا :

ـ يا فتاتى العزيزة ، يلوح لى أنك اخترت وقتا غير ملائم للقاء فتاك !.

ـ أى فتى ؟ ارفع يدك عن كتفى ؟

وأطاعها صاغرا . وراح يتأملها متعجبا من أمرها ، لأنه لاحظ أن ثيابها تختلف عن ثياب غيرها من بنات وطنها ، كما كانت تتزين ببعض اللآلىء الثمينة . وقال لها وهو يتفرس فى وجهها :

ـ لقد قلت لك من أنا ، أفلا تقولين لى من أنت ؟ ؟

ـ ايلين . قد تكون ضابطا كما قلت لى ، ولكنك لم تصارحنى بحقيقة أمرك !.

ـ وهل تعرفين عنى غير ذلك ؟ ؟

ـ أعرف انك لا تعرف اين انت ، والا لما كنت هنا .

ـ ولماذا لا أكون هنا ؟

ـ لأنك تضع قدميك على ارض مقدسة غير مسموح لأحد بأن يمر بها غير الكهان !.

فقطب كونستانتيوس جبينه ، اذ كان من المتعارف عليه بين رجال الجيش الرومانى ، الا يتدخلوا فيما يمس شعائر البلاد وان يبتعدوا عن كهانهم . وكان قواده يحرصون على اتباع هذه التعليمات وتنفيذها بكل دقة تفاديا من كل ما يشكل . فقال لها بعد أن استعرض كل هذه الاعتبارات بذهنه :

ـ اذن فأنت منهم ؟ !

ـ هراء بداهة لست من الكهان ! . ولكننى هنا لأننى ابنة الملك !.

لئن صح هذا ، لازداد الموقف تعقيدا ، فاذا ما صاحت هذه الفتاة مستنجدة مستغيثة ، لأتاحت لقائده كارينوس فرصة يحاول فيها أن يظهر براعته فى معالجة معقدات الأمور . يا لله ! ابنة الملك ؟ . ان الملك الوحيد فى هذه الناحية هو كويللوس العجوز ، الذى يقيم فى مكان ما بالقرب من كاميلودينوم !.

ـ ومن عساه يكون والدك يا سيدتي الأميرة ؟ !

ـ كوبل ، انك تعرفه بدون شك ؟ ان كل من التقيت بهم من الضباط يعرفونه .

ـ وهل التقيت بالكثيرين منهم ؟

ـ أجل . رايت الكثيرين .

ـ يبدو لي انك لا تحبين الضباط الرومانيين .

ـ انني لا أحب الرومانيين حقا . ولكنك يجب الا تخبر والدي بأنني صارحتك بذلك ، لأنه لا يقر مثل هذه الصراحة !.

ـ ما اظن الا أنه على حق فيما يرى . انك تخاطرين بهذه الصراحة .

فاستشاطت غضبا وهي تقول له :

ـ هراء ما تتحدث به . ان والدي اكثر شجاعة من اي روماني . ولكنه يؤمن بأنه من الخير عدم مصارحة الناس برايك فيهم اذا ما كان في هذا ما يؤذي شعورهم !.

ـ انه لشعور جميل منه . وانت ، ألا توافقينه على ذلك ؟!.

ـ لا يعنيني أن أوذي شعور الناس ، اذا ما اعتقدت انهم يستحقون ذلك !.

انها لفتاة قوية الشخصية ، ليس في ذلك من شك . ثم تبادر الى ذهنه ما قالته له عن قدسية هذه الارض ، فقال لها :

ـ أرى أنك على حق في أمر واحد على الأقل . لقد ضللت طريقي في هذا الظلام فعلا ، وأقسم انني اشعر بالأسف الشديد لهذا الخطأ غير المقصود !.

فتأملته الفتاة بنظرة حائرة قائلة :

ـ اما وقد اعترفت بالحقيقة ، واعتذرت عن اقتحامك لهذه الأرض المقدسة ، فليس أقل من أن اعاونك على الخروج من هذا المأزق .

وتقدمته ، وتبعها متمتما بآيات شكره . ثم استفسر منها عن المسافة بينهما وبين المعسكر . فقالت له :

ـ مسيرة خمس ساعات على الأقل . انك لن تستطيع أن تواصل سيرك الى هناك الليلة ، انك ذاهب معي الى والدي .

وراح الضابط يقلب الأمر في ذهنه . أنه يعرف عن كويللوس العجوز خشونة طباعه وغرابة أطواره وميله للعزلة . ان عدد من التقى بهم من ضباط فرقته لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، بما فيهم كارينوس . ان هذا العرض الذي بدأ منها لا يروقه ، فقد يستتبع ذلك بعض الاشكالات الدبلوماسية وغير القليل من الحرج . ولكنه هز كتفيه في غير اكتراث ، لأنه لم يجد مفرا من أن يتبعها الى حيث أرادت له ذلك . ومهما يكن من أمر ، فانه لم يعد في ميلان ، حيث البلاط الآمبراطوري ، الذي يؤول فيه كل ما يقوله المرء ويفعله تأويلا غير ما كان يقصده أو يعنيه .

ـ فليكن يا سيدتي الأميرة . متى سنصل الى هناك ؟.

ـ بعد نصف ساعة حسب معدل خطواتنا هذه . لوكنت بمفردي لبلغت القصر في نصف هذا الوقت .

ـ انك لا تعانين من ثقل ما أحمل من سلاح .

ـ لم يكن بك حاجة لأن تثقل على نفسك بكل ذلك . انك في بلد مسالم . ولكنكم معشر الرومان تحبون أن تذرعوا البلاد طولا وعرضا متباهين بدروعكم وسيوفكم وبثقل خطواتكم! ثم راحت تقلد بصوتها وقع خطوات جيوشهم ، فضحك وهو يقول لها :

ـ ستعرفين فضل هذه الجيوش عليكم يا طفلتي العزيزة في يوم ما ، انها حيثما تدب بأقدامها تحمي الأرض التي تردد صدى خطواتها .

ـ اظن أن فيالقكم قد بلغت أرض سوريا الآن ؟

ـ انها حملة !!

اجل . ضد امرأة ! واني لأتساءل : هل ترى هي رأيكم ؟

« زينوبيا ؟ . كلا . ما أظنها الا معلنة انها حرب هجومية . وهذا شأن من يحاربون جميعا !

واستطاع أن يتبين ابتسامتها الساخرة وهي تقول :

ـ انها جديرة بكل اعجاب . لقد هزمت جيوشا كثيرة تقودها الرجال ، اليس كذلك ؟ . وانها لفاعلة ذلك مرة أخرى .

ـ ما اظنها بقادرة على ان تهزم الامبراطور ، يا طفلتى العزيزة.

ـ سنرى ماذا سيكون من أمره . انها امرأة عظيمة . عظيمة مثل كليوباترة ، عظيمة مثل ...

فقاطعها قائلا :

ـ لقد وعيت دروس التاريخ . ولعلك لم تنسى كيف كانت نهاية هؤلاء النساء . .

ـ وكيف كانت نهاية قيصر ؟ .

وأسرعت الخطى غاضبة محنقة وأسرع خلفها محاولا الا تغيب عن عينيه ، وقد أيقن أن اللحظة ليست ملائمة لهذا النوع من النقاش .

ومما أثار دهشته أن يصادف فتاة لها مثل هذه الآراء . وبالذات فى بريطانيا .

ـ ماذا قلت لى عن اسمك يا سمو الأميرة ؟

ـ ايلين . لعلك تذكره فى يوم من الأيام .

ـ لن أنساه ثانية . ايلين ـ انه هيلينا عندنا ـ لعلك سمعت عن قصة هيلينا ، هيلينا التى نشر جمالها الموت بين الكثير من الرجال ؟

ـ لا اعرف عنها شيئا . ان الجمال ليس كل شىء ..

ودهش كونستانتيوس ، وهو يتأملها مرة أخرى ، أن تقول هى ذلك وهى الجميلة الرائعة الحسن .

ـ ٢ ـ

بدا الملك كويل فى شعره الأشيب وشاربه الكث وحاجبيه الغزيرتين ، شيخا عطوفا رقيق الحاشية ، عندما كان جالسا فى بهو قصره ، واقبلت عليه ابنته وبرفقتها كونستانتيوس . وبالرغم

من أنه لم يكن هناك من الخدم من يعلن قدومهما ، الا أنه لم يبد على الرجل انه دهش لقدمهما بل استقبلهما قائلاً :

ـ مرحى ، مرحى ، بابنتي وبضيفها • الا من يحضر كأسا من النبيذ للسيد كونستانتيوس •

وحملق الضابط في وجه الملك دهشا وهو يقول له :

ـ كيف عرفت اسمي يا جلالة الملك ؟• اننا لم يسبق لنا أن تقابلنا •

فضحك الملك قائلا : ان ابنتي أصغر سنا من أن تحاط علما بكل شيء • ان لي وسائلي التي أطلع بها على كل شيء • واني لآسف لما سببه لك طقس بلادي الرديء من ازعاج • انني لا أملك حياله شيئا •

وأقبل الخادم حاملا قارورة النبيذ ، مما اتاح للضابط الروماني بعض الوقت للتفكير • وجال بخاطره ما يقوله بعض الناس عن هذا الملك وعن شذوذه ، وما يقوله آخرون عن خداعه وخبثه ، وتظاهره بالجنون لأغراض في نفسه • وقرر أن يحتفظ بحكمه الأخير لآخر لحظة • واحتسى كأس النبيذ الذي قدم له ، وسمع الملك يستطرد قائلا :

ـ وكل ما أستطيع أن أفعله لأعوضك عما لاقيت من عناء ، أن آمر لك بحمام ساخن من النوع الذي أعرف انكم تفضلونه • لكل من مشاربه وعاداته ؛ وقد يبدو كل منا في عين الآخر شاذا في ناحية ما ••

وانصرف الضابط الروماني بعد أن أذن له الملك بالانصراف •

وتوجه الى حيث اغتسل واستبدل ثيابه المبتلة بما أمر به له الملك من ثياب جديدة استعدادا لتناول طعام العشاء بناء على دعوة الملك له •

***

كان عدد الجالسين الى مائدة الطعام اثني عشر • الملك وهيلينا وامرأة مسنة كانوا ينادونها بأورجين وفضل لها كونستانتيوس اسم « فيرجينيا » وكانت تبدو كاحدى الوصيفات ، والباقون رجال

من كبار السن ، بدا عليهم انهم من مستشارى الملك وكبار رجال البلاط .

وجلس الضابط الرومانى يستمتع بطعامه . وكان الملك قليل الأكل والشراب كثير الكلام ، وقد تعلقت انظار الجالسين حول المائدة به . اما هيلينا فكانت ملتزمة جانب الصمت . واستطاع كونستانتيوس أن يتأملها مليا ويزداد اعجابا بجمالها . بذلك الوجه الدقيق التقاطيع الحلو الملامح ، وبهاتين العينين السوداوين بأهدابهما الوطف ، وبتلك البشرة الملساء الرقيقة ، وبهذا الفم القرمزى الجميل . يحيط بهذا كله اطار من شعرها الأسود الفاحم الذى يتوج رأسها بجبينه الوضاء المشبع ذكاء .

يحتمل أن تكون هذه الفتاة اسبانية . ويحتمل أن تكون من أصل غالى . بل ولم لا تكون رومانية . هذا ما جال بخاطر الضابط الرومانى عندما كان يتأملها . وقطع عليه حبل تفكيره صوت الملك قائلا ، وكأنه قد قرأ أفكاره :

ـ أن ايلين تبدو فعلا كاحدى فتيات الرومان ، أليس كذلك ؟

ثم ابتسم لما لاحظه على وجه الضابط من علامات الدهشة مستطردا :

ـ ولكنها لا تحب الرومان كثيرا ، كما انها لا تعترف الا بالمولودين فى هذه الجزيرة .

فضحك كونستانتيوس ضحكة رقيقة خافتة . واصطبغت وجنتا الفتاة بحمرة الخجل ، ولكنها لم تعقب بشىء . واستطرد الملك موضحا .

ـ لقد حاولت أن اثنيها عن رأيها هذا لما فيه من خطأ جسيم ، أن الناس لا يجب أن يقاس قدرهم بمعيار واحد . لقد مثل امامى بالأمس رجل أحدب . وشكا لى بمرارة من ظلم القدر له . فلما سألته ان يحدد لى ما يشكو منه ، اجاب بأنه يتظلم من تشويه خلقه . فطيبت خاطره قائلا « ولكنك لا تبدو قبيحا كرجل أحدب يا صديقى » .

وتحرك كونستانتيوس على مقعده قليلا • ولم يكن واثقا مما عناه الملك بقوله هذا • ولم يتبين ما اذا كان جادا أو مازحا •

وواصل الملك حديثه قائلا :

ــ ان الرومان هم الرومان • وعلى هذا الأساس يجب أن يكون تقديرنا لهم • ان سمات ايلين فعلا تجعلها قريبة الشبه بالرومان• ولطالما تساءلت فيما بيني وبين نفسي عما اذا كانت قد قدر لها انها ستولد صبيا ، ثم شاءت المقادير بخلاف ذلك في آخر لحظة ؟

فعقب كونستانتيوس على قائلا :

ــ لو تحقق هذا ، لكانت قد اصبحت من كبار القواد المحاربين بدون شك !!

ــ انها لكذلك فعلا ألم تقتل ذئبا منذ أسبوعين ؟

قال الملك ذلك وهو يتأمل النبيذ فى كأسه •

وهنا تكلمت هيلينا اخيرا :

ــ كان ذئبا صغيرا • وكان ذكرا •

فأومأ الضابط برأسه موافقا وهو يقول :

ــ فعلا ، ان انثى الذئب أشد خطرا من الذكر • لقد قيل لى بأن الذئاب قد أوشكت على الانقراض من هذه البلاد منذ وفد الرومان عليها !!

فعضت هيلينا على شفتها • وبدا ان الملك قد فهم ما يعنيه الضابط وهو يقول له :

ــ ان كلامنا يمر بعمر الذئاب • ثم يمضى بنا العمر ليتخطى هذه المرحلة ، وينتقل بنا الى مرحلة الدعة والسلام • لقد كنت ذئبا عندما كنت شابا يافعا • لقد مضى هذا العهد وانقضى منذ زمن طويل • ولكنه لم يكن فى طول عهد روماالتى أشرت اليها فىحديثك يا كونستانتيوس !•

ــ انك لعلى حق فيما تحدثت به يا سيدى الملك • ان روما لا نريد غير السلام •

فتدخلت هيلين محتدة :

ــ ستسر زينوبيا كثيرا لو سمعت ذلك •

فاجابها الضابط الرومانى :

ـ ان ملكة تدمر ضحية بطانتها التى لم تخلص لها النصح . لقد تلقينا تقارير مؤكدة عن اعتزامها أن تجعل من مصر اقليما سوريا ولم يكن هذا الا خطوة مبدئية نحو اقامة امبراطورية تدمر .

فتدخل الملك قائلا :

ـ سوريا ، انها الشرق . ولم تكن روما معروفة يوم ان كان الشرق قبلة العالم ومصدر وحيه ان الدنيا تتغير .

وشعر كونستانتيوس بالحرج ، وراح يعيد ملأ كأسه وهو يحدث نفسه عن حقيقة ما عليه هذا الملك . ولاحظ أن هيلينا تختلس النظر اليه دون أن تعلق بشىء ..

واستطرد الملك فى حديث طويل عن حكام روما وميلان وعدم ايمانهم بالأساطير التى هى فى عرفه الحق الوحيد . وراح ينحى باللائمة على كل من لا يؤمن بهذه الأساطير وفهم ابنته التى يرجو لها أن تؤمن بذلك فى يوم من الأيام وظل الملك يتكلم ، وظل الضابط الرومانى يصغى اليه فى ملل ، حتى غلب النعاس الملك ، ومال برأسه على المائدة واستغرق فى سبات عميق .

وعقبت هيلينا على ذلك قائلة :

ـ انها قصته المحببة . وهى التى تجلب النعاس الى عينيه كلما اطنب فى سردها . هل فرغت من تناول طعامك ؟ . اذن سادعو الخادم ليرشدك الى غرفتك .

ونهضت عن مقعدها ، وحذت فيرجينيا حذوها . فقال لها الضابط متسائلا :

ـ وهل يتعين على ان آوى الى فراشى بالأمر ؟

ـ لك أن تفعل ما تشاء . ولكن ، لا يوجد ما تفعله غير ذلك ؟ لقد انتهى اليوم ؟

ـ يمكننا ان نجلس لنتبادل الحديث .

وكانت هيلينا قد شغلت بصرف الأعيان الثمانية من مجلس الملك النائم . وبعد ان انتهت من ذلك استدارت له قائلة :

ـ يمكننا ان نفعل ذلك غدا ، اذا اردت وسآمر باعداد الجياد اللازمة لك فى الصباح . طابت ليلتك .

ـ طابت ليلتك يا سمو الأميرة .

ثم أصدرت أوامرها للخدم بحمل الملك الى فراشه .

- ٣ -

كان صباحا صحوا منعشا جميلا . واستيقظ كونستانتيوس من نومه ليجد ملابسه وعدة سلاحه نظيفة معدة بجوار فراشه . وجريا على مألوف الرومان أحضر له جاللو الخادم ، نبيذا ممزوجا بالعسل الأبيض . وكانت حركة موفقة ممن أمر بها ، لم يستطع الضابط الرومانى أن يتخلص من اسارها . وحاول أن ينسب الفضل فى ذلك الى أى من الملك أو ابنته ، غير أن كفة الملك كانت الراجحة لأنه يعرف عن هيلينا كرهها للرومان . ولكن لماذا ؟ . أبدافع الوطنية والتعصب الشعوبى ؟ . ان بريطانيا كانت اقليما خاضعا للرومان على مدى ثلاثة قرون . ان شعورها هذا عجيب حقا ..

وتناول طعام افطاره حيث تناول طعام عشائه بالامس ، ولكنه كان يجلس الى المائدة فى هذا الصباح وحيدا ، الا من جاللو الذى قام على خدمته .

وبعد أن فرغ من طعامه ، نهض مستفسرا من الخادم عن الملك وقبل أن يسمع ردا منه ، سمع وقع أقدام مقبلة فى اتجاه القاعة التى كان يتناول افطاره بها . واقبلت عليه هيلينا قائلة :

ـ عم صباحا . هل أنت مستعد ؟

ـ أجل . ولكنى لم أستأذن من الملك بعد .

ـ لقد خرج الملك الى جولته الصباحية . لا عليك من ذلك . هيا بنا . سأذهب معك لأعود بالجواد .

ـ يشرفنى ذلك . وخرجا الى فناء القصر وهو يعجب فى

نفسه من أمر هذه الفتاة ومن أمر أبيها . ووجد امامه جوادين من خير الجياد . قالت له وهى تعتلى ظهر جوادها :

ــ سنبلغ المعسكر بعد ساعة .

ثم لوت عنان جوادها فى مهارة الفارس القدير . وقفز بدوره الى ظهر جـواده ولحق بها . وبعد قليل وصـلا الى ضفة النهر ولاحظ أن هيلينا توقفت فجأة . ووقع نظره عـلى تل صغير فى الناحية الأخرى بعيدا عن النهر على مرمى البصر ، ولم يستطع أن يرى أكثر من رداء أزرق يعلوه رأس اشيب ، فخيل اليه انه احد الرعاة او الفلاحين . ثم ادرك من نظرات الاميرة أنه والدها الملك . وتحركت هيلينا بجوادها لتعبر النهر ، فتبعها بعد أن رفع ذراعه محييا الملك الذى كان مستغرقا فيما كان فيه ولم يرد عليه تحيته .

وجاهد حتى لحق بالاميرة على الضفة الأخرى . قال لها :

ــ اظن انه والدك . هناك على قمة التل .

ــ ربما . ما من أحد يعرف شيئا عن حركاته .

ولكزت جوادها وانطلقت به عدوا . وأدرك من ذلك انها لاتبغى مواصلة الحديث فى هذا الموضوع .

ووصلا الى المعسكر بعد ساعة . وحياه الحارس الواقف عند الباب الجنـوبى . وعرض عليها أن تدخـل معه لتستريح وتريح جوادها . ولكنها اعتذرت . وقبل أن يعاود دعوته ، اقبل عليهما الضابط كومينتوس بالبوس مسرعا .

ــ هاأنتذا أخيرا يا كونستانتيوس .. لقـــد ظن الجميع أن حادثا ما قد وقع لك . ما ابدعه من حادث .

قال ذلك وهو يتأمل الاميرة بعينيه :

فقطب كونستانتيوس جبينه وهو يقدمه لهيلينا قائلا :

ــ الضـــابط كومينتوس باليوس . الاميرة هيلينا ابنه الملـك اكويللوس .

فابتسم بالبوس قائلا :

ـ بحق جوبيتر ، انك لتعـــرف كيف تقضى وقتك ، تراقب الشواطىء البريطانية نهارا والأميرات البريطانيات ليلا . يالهـــا من مهمة ..

فامتقع وجه كونستانتيوس ، ثم أقبل على زميله قائلا :

ـ لعلك اكثرت من تناول الخمر . عليك أن تعتـــذر للأميرة فورا عما بدر منك !

فشد بالبوس من قامته قائلا :

ـ لا حاجة بك لأن تحدثني بهذه اللهجة . أولا لأنك قضيت وقتا مع هذه ...

فاسرع كونستانتيوس بالقفز عن ظهر جواده وقد اســـتبد به الغضب قائلا :

ـ هل ستعتذر فورا . أم أرغمك على هذا ارغاما ؟...

ـ هيا نفذ وعيدك . بودى لو اعرف كيف سيكون ذلك ؟

ـ سترى وستتعلم .

وأسرع كونستانتيوس اليه يمسك بخناقه وقد أعماه الغضب . ووجه بالبوس لكمة الى وجه كونستانتيوس ولكن هذا لم يشـــعر بها . وظل مطبقا بأصابعه على عنق غريمه . ولم يرحمـــه منه الا سماع كونســـــتانتيوس لوقع حوافر جواد الأميرة وهى تنطلق مبتعدة عنهما . والتفت ليراها منطلقة وقد تهدل شعرها الأســـود الفاحم على ظهرها تلعب بخصلاته الرياح .

ودفع كونستانتيوس الضابط بالبوس وهو يلعنه . فترنح هذا وسقط عند قدمى القائد كارينوس الذى تصادف مروره فى هذه اللحظة بالذات .

ـ يا للمشهد الاخاذ . ستمثلان أمامى بعد نصف ساعة . ان لى معكما لشأنا .

ثم استدار يضرب الأرض بقدميه غاضبا . وقد تبعه من كان برفقته من ضباط .

وتأمل كونستانتيوس غريمه وهو يحاول أن ينهض بمســـاعدة اثنين من الجنود قائلا :

ـ بيننا حساب طويل »

وحدجه بعينين تتقدان شررا · ثم انصرف وهو يحدث نفسه قائلا :

ـ لا عجب من أنها تكره الرومان ، انهم اكثر الناس حمقـا وغباء ...

ونسى في غمار غضبه حقيقة موقفه . واقتضى منه استعادته لهدوئه بعض الوقت قبل أن يتبين تلك الظروف السيئة التي ألقت بهذا الضابط في طريقه ، ثم بمرور قائدهم في تلك اللحظة بالذات .

واستقبله تابعه روفوس كما تستقبل الأم ولدها العائد اليها متسخ الثياب مغبر الوجه . وعلم الضابط من تابعه بكل ما كان في غيابه من قلق عليه ، وبما قاله القائد عنه من انه أحسن ضباطه فابتسم كونستانتيوس قائلا :

ـ ما أظنه الآن الا وقد غير رأيه في ! ولكنه طاب خاطرا بماله من تقدير في نفس قائده ، قد يكون له أثر في تخفيف غضبه عليه . وأمر تابعه بتنظيف ثيابه استعدادا لمثوله أمام قائده .

ولما دخل خباء القائد ، وجد بالبوس قد سبقه الى هنـاك . وكان وجهه منتفخا ، وعينه اليمنى متورمة · وعلى أثر وصوله أزاح كوريو مساعد القائد الستر الفاصل معلنا قدوم الضابطين .

وبعد أن أديا لقائدهما التحية العسكرية ، وقفا وقفة انتباه في انتظار أوامره .

وكان القائد كارينوس جالسا الى مكتبه يوقع بعض الأوراق ومرت برهة دون أن يعيرهما أي التفات . ولما رفع وجهه اليهمـا أخيرا ، تبين الضابطان فيه ملامح الضجر والاشمئزاز التي تعتمل بها نفسه .

ـ من أوجب الواجبات لدى الضابط أن يكون مثـالا للرجل المهذب المثقف . وانه ليدهشني أن أراكما تتشاحنان كما يتشاحن المصارعون المخمورون .

وباشارة من يده أوقف الضابطين عما كانا بسبيله من ايضاح ، ثم واصل حديثه قائلا :

ـ كونستانتيوس ، لقد تخلفت عن طابور الصباح • فما هو عذرك ؟

ـ لقد خرجت لمراقبة الشاطىء بعد ظهر أمس يا سـيدى • وما هو الا قليل حتى حاصرنى الضباب وضللت طريقى • واخيرا تمكنت بمساعدة بعضهم من أن أصل الى قصر الملك كويللوس حيث قضيت الليل •

ـ وهل قابلت الملك ؟ !

ـ أجل يا سيدى ، التقيت به ورحب بى وأكرم وفادتى وفى الصباح تكرمت ابنته باعادتى الى المعسكر • •

ـ ابنته ؟ الفتاة التى شاهدتها تعدو بجوادها ؟!

ـ أجل يا سيدى • وما ان وصلنا الى مدخل المعسكر ، حتى قابلنا الضابط بالبوس وأهان الأميرة اهانة • • •

ـ ان كل ما قلته • • •

ـ صمتا أيها الضابط بالبوس •

بهذا قاطع القائد الضابط وقد احتقن وجهه غضبا ثم قال :

ـ فلتتابع روايتك أيها الضابط كونستانتيوس •

ـ لقد علق بالبوس على قضائى الليل بالقصر بصورة سمجة • ونهض القائد عن مقعده قائلا :

ـ وهل سمعت السيدة ما قاله بالبوس ؟•

ـ حرفا بحرف • وانها تلم باللاتينية الماما تاما • ولقد نطق بما نطق فى مواجهتها !•

ـ وماذا فعلت بعد ذلك ؟ !

ـ أمرت بالبوس بأن يعتذر للسيدة فرفض • فما كان منى الا أن • • وانك لتعرف ما كان بعد ذلك يا سيدى • • •

ـ وحق سقر ، انى لا أعرف ما كان وما سيكون مما لا تعرفه أنت • • وأنت يا بالبوس ، ما هى أقوالك ؟!

ـ اننى لم أشر صراحة الى ما يمس السيدة مباشرة •

ـ إنه لم يقل ذلك • لقد ذكر أنك اهنت الأميرة تلميحا •

ــ لم أتعمد ذلك يا سيدي ».

ــ افهم هذا . لقد اردت ان تتظاهر بظرفك وخفة روحك .. ولكن تصرفك هذا قد يكلف روما غاليا ، ان الأميرة هيلينا هي الابنة الوحيدة للملك كويللوس ، حليف روما ، الذي يأتمر بامره خمسة عشر الف مقاتل في ميدان القتال ، وهانتذا تجعل منها هدفا لتندرك أيها المهرج الأخرق .

واسقط في يد بالبوس ، وبهت كونستانتيوس لما سمعه عن الملك ، الذي لم يكن يري فيه أكثر من اقطاعي ، لا حاكما وقائدا كبيرا لجيش له خطره .

واستأنف القائد مجلسه ، ومسح بيده على جبينه قائلا :

ــ بالبوس ، ستسافر بعد ظهر اليوم الى الشمال ، الى السور العظيم ، انك لا تصلح للخدمة في هذه الناحية من البلاد .. وهناك في الشمال ، سيتسع لك المجال لتستعرض خفة روحك ومواهبك بين الاسكتلنديين ما طاب لك . ولو كنت مكانك ، لالتزمت جانب الحذر لأنهم قوم لا يميلون للدعابة والهذر ، لا حاجة بك لأن تستأذنني في السفر . اذنك معك من الآن !.

وبعد أن انصرف الضابط بالبوس ، اضطجع القائد فيمقعده مستغرقا في تفكير طويل . وظل كونستانتيوس واقفا مكانه قلقا. وأخيرا تحرك القائد في مقعده ، واتجه بحديثه الى مساعده كوريو قائلا :

ــ عجيب أن يقع هذا اليوم وفي تلك الظروف . يحسن بنا أن نصارحه بالامر .

ــ اجل يا سيدي ، لقد كان توقيت الحادث غير مناسب.».

ثم وجه القائد حديثه الى الضابط كونستانتيوس قائلا :

ــ اجلس أيها الضابط ..».

ــ شكرا يا سيدي .

وحدجه القائد بنظرة ثابتة قائلا :

ـ ان كل ما ستسمعه الآن يعتبر من الأسرار العسكرية التى تستدعى الكتمان .. هل فهمت ؟!

ـ أجل يا سيدى القائد .

ـ حسن .. لقد بلغتنا أنباء سيئة من بلاد الغال .

ـ أهى ثورة يا سيدى ؟

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لقد استنتجت ذلك . اننى أعرف بلاد الغال جيدا . هناك هوة عميقة الغور بين ملاك الأراضى والفلاحين ..

ووافقه القائد على حدسه . والقى اليه بتعليماته التى تقضى بسفر فرقة كاملة الى هذه البلاد لقمع الثورة . واستطرد قائلا :

ـ ومن هنا تدرك أننا فى أمس الحاجة لتأمين جانبنا هنا بعد رحيل هذا العدد الكبير من قواتنا ، زد على ذلك أننا لا ننتظر وصول امدادات الينا من اى مكان آخر . هذا وقد قررت أن أبعث بمندوب الى الملك كويللوس . يحمل عنى رسالة اليه مشفوعة ببعض الهدايا . لكم كنت أود أن اعرف اى نوع من الهدايا ابعث بها اليه .

ـ ليكن شيئا مصنوعا من الخشب . انه يحب الخشب ويقدسه ، كما علمت من حديثه الطويل ليلة عشائى معه . انه لا يفتأ يتحدث عن الخشب طوال الليل والنهار كما علمت من ابنته .

ـ انه من مقدسات الاله جوبيتر ..

ـ تماما يا سيدى .

ـ اذن فلتذهب أنت بالهدية وبالرسالة اليه .

ـ أنا يا سيدى ؟

ـ أجل انت ، ومن تراه يصلح لهذه المهمة غيرك ؟ ولتحضر لمقابلتى باكر بعد طابور الصباح .

ـ سمعا وطاعة يا سيدى .

— ٤ —

كان الملك كوبل جالسا على صخرته المحببة الى نفســـه فى غابته الاثيرة لديه . وكانت هيلينا جالسة عند قدميـــه . تتطلع بعينيها الى ما وراء الجبال البعيدة . هكذا كانا يجلسان ، وقد ران عليهما صمت مطبق طال عليه الأمد .

ــ انني لا أريد الزواج به يا ابتى .

ــ لا تريدين ؟

ــ بلى ، انه متعجرف يتفضل على بمسايرة ارادتى تلطفـــا ومجاملة .

ــ انك غضبى لأنك لا تستطيعين السيطرة عليـــه . وانك ان استطعت ذلك لاحتقرته . انك لا تعرفين هذا جيدا وانك تقــولين مالا يقوله قلبك .

وضحك الملك مداعبا ابنته .

ــ انني اريد ان أصبح كزينوبيـــا . انني لم أخلق لأجلس فى عقر دارى ، أقطع الوقت فى الحديث مع الخدم وأتحكم فى توافه الأمور .

وابتسم الملك مشفقا مما يسمعه فاستطردت قائلة :

ــ مهما يكن من أمر ، فانني لن أتزوج كونســتانتيوس . انه يعاملنى كطفلة مع أنه هو الطفل . كما انه لا يؤمن بآلهته ولا بأى شيء آخر .

ــ كفى عن مثل هذا الحديث ، حتى تستطيعين أن تســمعى بحديث قلبك . انه لم ينقطع عن الحضور طوال هذه الأسابيع .

ــ محملا بالهدايا ليأسروا قلبك ، لأنهم فى حاجة اليك يا والدى . هؤلاء القوم لا يفكرون الا فى أطماعهم وفى امبراطوريتهم فى روما . لقد صارحته بألا يضيع وقته سدى فى زيارات المجاملة هذه . ولعلك لا تعرف انه سيكون مسئولا عن قيادة الفيلق فى غيـــاب كاروزيوس . ولا يجدر بالقائد أن يترك مقر قيادته .

وتظاهر الملك بأنه لم يسمع شيئا مما قالته . وقال لها :

ـ لقد ابلغت بأن هناك بعض المتاعب فى احدى قرى الجنوب. وسأتوجه لاستطلاع الأمر وسأعود فى الليل . اتركينى الآن. ولقد أصدرت أوامرى لجاللو باعداد وليمة رسمية حددت لها بعد الغروب بساعة !.

فتأملت والدها دهشة . ان الولائم الرسمية لها وضعها الخاص وودت لو سألته عن مناسبة اقامتها ، ومن سيدعى اليها ولكنها لاحظت ان والدها قد استغرق فى نومه كعادته بعد أن تدلت رأسه على صدره !.

ونهضت فى سكون وهى تتحاشى ازعاجه وانحنت فى رفق لتودع شعره الأشيب قبلة حانية . ومشت بين الأشجار آمنة مطمئنة على سلامته ، حتى من الذئاب الضارية ، وتوقفت بعد قليل ، لتلقى نظرة على والدها فى ردائه الأبيض ورأسه المائل بتاجه الأبيض ؛ وجال بخاطرها أن والدها قد تقدم به العمر، واقترب من نهاية الحياة ، فجزعت لهذا الخاطر وارتجفت . انها لا تريد له أن يموت . انها فى أشد الحاجة اليه . أن حياته بالنسبة اليها تعنى كثيرا . انها لا تستطيع أن تقنع نفسها باقتراب هذه اللحظة الرهيبة . انها لا تستطيع أن تقنع نفسها باقتراب هذه اللحظة الرهيبة .

ولما بلغت حدود الغابة وأشرفت على الطريق الرئيسى الممتد على جانب النهر ، وقع نظرها على فارس يعدو من بعيد . انه هو ...

والتقيا على مقربة من القصر . ولاحظت ، وهو يترجل عن ظهر جواده ، أنه منفعل مبتهج كمن يحمل أنباء حسنة ، أو كمن يترقب شيئا من هذا القبيل .

ـ ماذا يشغلك عن مهام وظيفتك يا سيدى الضابط ؟

ـ هيلينا ، لا تتفوهى بشىء .. انك على حق فيما تقولين .. أن تأثيرك على لا ينكر ، وانه ليزداد يوما بعد يوم . لقد أصبحت شغلى الشاغل .



ولم تعقب بشيء ..

وعندما بلغا باب القصر ، عهد بجواده الى أحد الخـــدم ثم سألها :

ـ أين والدك ؟

ـ ذهب لزيارة قرية في الحي الجنوبي ، لمواساة أهلها بسبب ما حل بهم نتيجة للعاصفة .

ـ انه بمثابة الأب لشعبه ؟ ياله من ملك حكيم رحيم !

وخلع خوذته وهما يدلفان من باب القصر الخارجي . فأطرت جمالها ودقة صنعها . وعلمت منه أنها مصنوعة في بلد غير روما، وتطرق بهما الحديث حتى علمت منه أن عدة سلاحه كلها مصنوعة في اسبانيا . فقالت له متهكمة :

ـ وماذا بقي بعد ذلك لروما ؟ روما مقر الامبراطورية بجلالة قدرها !. أنظر الينا نحن الشعب الفقير التابع لكم ـ الشعب الهمجي في أعينكم ـ اننا نعيش على أرضنا ونعتمد عليهـــا . ونصنع أسلحتنا بأيدينا . اننا لا نكلف غيرنا بالعمل أو بالقتال نيـابة عنا كما تفعلون أنتم في روما !.

ـ لماذا تكرهين روما الى هذا الحد ياهيلينا ؟ لطالما وددت أن أوجه اليك هذا السؤال . وعلى أي أساس تبنين حكمك هذا ؟

ـ أنا لا أكره روما . كل ما في الأمر انني أحب بلادي . ان روما لا تعني شيئا بالنسبة لي .

ـ ومع ذلك فان هذه الأرض التي تقفين عليهـا هي جزء من الامبراطورية الرومانية ..

وكان يقول ذلك ليثيرها ..

ـ هكذا ؟ اذن فهذه أرض رومانية ؟ وشدت من قامتهـا في وقفة تحد غاضبة .

ـ أجل.أم لعلك تريدين ان تقولي اننا نقف على ارض مقدسة كما حدث عندما التقينا لأول مرة ؟

ـ اننا نتبع روما اسما ، ولكنك لم تفهم ولن تفهم . ان كل بقعة من هذه البلاد بمثابة أرض مقدسة بالنسبة لنا.ان كل مافيها

من هواء وماء وأرض ؟ يمتزج بأرواحنا . لقد حكمتم هذه البلاد جيلا بعد جيل بيد من حديد . ولكن زمامها سيفلت من ايديكم في يوم ما ، كما يفلت زمام الخيل من يد الفارس الرديء . ان كل من يفد على هذه البلاد من الخارج لا مفر له من أحد مصيرين ، فاما أن يذوب في شعبها ويفقد ذاته ، واما أن يلقى به خارجا ليعود من حيث اتى . اما أنتم معشر الرومان . فلكم من كبريائكم حصنا يحول دون امتزاجكم بالشعب . ولم يبق هناك الا البديل الآخر ، إلا وهو أن يلقى بكم خارج هذه البلاد .

ـ من ذا الذى لقنك كل هذا الهراء ؟ !

ـ انه والدى الذى يلقبونه في طول البلاد وعرضها « بالحكيم » ، انكم أول من وطأت أقدامهم هذه البلاد من الغرباء عنوة . حتى اللصوص والقرصان من دول أخرى ، لم يتخطوا حدود سواحلنا ، انكم أول من اجترأ على معاملتنا هكذا ـ التابع والمتبوع ـ وسيأتى بعدكم آخرون ، كما يتنبأ بهذا والدى ، ولكنهم بعد حين سيندمجون في شعبنا جيلا بعد جيل . وسينتج من هذا الخليط شعب قوى سيكون له شأنه . اننا في بداية الطريق ، أما انتم فقد بلغتم منتهاه ! .

ولم يع شيئا مما قالت . لقد كان ماخوذا بروعة حديثها الذى ازداد بغضبها جاذبية واسرا . ان ما تقوله لا يعنيه في كثير أو في قليل ، مادامت تبدو امامه هكذا جميلة فاتنة ! .

ـ انك رائعة . انك الجمال كله . ان الحسن قد تجسد في غضبك . وأبدع من هذا كله أننى أريد الزواج منك ! .

فخطت الى الخلف وهى تقول له :

ـ ماذا دهاك ؟ . النبيل كونستانتيوس بجلالة قدره ، يتنازل ويطلب الزواج من بريطانية . أو ترغب في الزواج منى او من جيش والدى ؟ لقد سمعت عن القلاقل في بلاد الغال فضلا عما هنالك في سوريا من قتال ! .

ـ لا تأسى على روما . انها بخير يا سمو الأميرة ، لقد وردت الانباء هذا الصباح ، لقد سقطت تدمر وأصبحت الملكة زينوبيا أسيرة للأمبراطور بعد أن عفا عنها . وسيعود بها بعد بضعة أشهر الى المدينة الخالدة ، ليراها الشعب ضمن موكبه .

ـ زينوبيا أسيرة ؟ !

وتهالكت على نفسها ، فأسرع اليها يسندها بذراعيه . ودفنت وجهها فى درعه ، ثم رفعت اليه عينين مغرورقتين بالدموع وشفتين تتحركان بما لم يسمع ، ولم يستطع أن يقاوم دعوتهما فأسكتهما بقبلة أودعها كل ما يجيش فى صدره ويفيض به قلبه .

الجزء الثانى : ٢٧٤ - ٢٨٩ بعد الميلاد

- ١ -

كان الطبيب الافريقي يمشي على أطراف أصابعه في غرفتها حتى استقر الى جانب فراشها . وكانت هيلينا تحس بوجوده ، ولكنها لم تحرك ساكنا ، وهي مستلقية في فراشها مغمضة العينين مسترخية في سكون .. وكانت هيلينا قد شعرت بنفور من هذا الطبيب منذ أن وقع نظرها عليه ، وصارحت زوجها كونستانتيوس بذلك . ولكنه أصر على ان يقوم الطبيب باسيليوس بهذه المهمة لشهرته التي طبقت الآفاق ، حتى انه كان يستدعى الى كل البلاد للاشراف على عمليات الوضع .

وبدا الطبيب يراقب حالتها ويتحسس نبضها ، ولما فتحت عينيها حاول أن يهدىء روعها ويطالبها بان تعمل من ناحيتها على مساعدته في مهمته ، بعد أن فقدت الكثير من حيويتها في الثلاثة أيام الأخيرة !.

ثم نهض مغادرا الغرفة في سكون . ولما التقى بكونستانتيوس خارج الغرفة ، كانت الابتسامة التي على وجهه مغتصبة وهو يقول له مطمئنا :

ـ سيكون كل شيء على ما يرام . لقد صادفتني حالات أشد من هذا بكثير .. قليل من الهدوء يا سيدي الضابط ، كلا لا تدخل الآن . فلنتركها تستريح قليلا حتى تستعيد قواها ..

ثم تركه الطبيب وانصرف الى حاله ، وعاد كونستانتيوس الى غرفة مكتبه .

وجلس وحيدا ، مع أفكاره ومع آماله وأمانيه . جلس يستعرض في اطار من طموحه الفرص التي قد تسنح له أو قد تواتيه حتى لا يظل ضابطا عاديا فحسب . ثم عرج في تفكيره على هذا المولود الذي ينتظر قدومه ، وتمنى أن يكون ذكرا . وراح يستعيد ما كانت

عليه هيلينا من قبلُ ، وما صارت اليه بعد أن أوشكت أن تصبح أما . انه سيصبح أبا ، وها هم الخدم يتضرعون ويصلون من أجل سيدتهم .

ان لكل منهم طريقته الخاصة فى صلاته الخاصة التى يتضرع اليها . عجبا ! . ولكل طقوسه وهكذا تتعدد العبادات والخلاق واحد . انه ليذكر أن هيلينا لم يسبق لها أن تحدثت اليه فى شىء من هذا القبيل . وهذا أفضل . أفضل بكثير مما كانت تثرثر به زوجة قائد كارونيوس عن الأديان ، حتى أنهم نسبوا اليها فى وقت ما أنها أكثر ميلا نحو دين المسيح الذى صلبه اليهود فى طبرية أو فى الجليل ؟ . انه لا يعرف شيئا عن حقيقة الاسم ـ أو المكان ـ ولقد كانت لهيلينا معتقداتها الخاصة فى كل ما يتعلق بالعبادات والأديان . وهى لم تكن تؤمن الا بوالدها وبكل ما يقوله والدها أو يصدر عنه من حكم . حتى فى مراسم عقد قرانهما ، فانها لم تردد غير ما ردده والدها من دعاء وترانيم .

انه لا يستطيع أن يؤمن بشىء غير القدر ، أو قل هذه اليد التى تنسج خيوط المصير لكل البشر . ومهما يكن من أمر ذلك كله . فانه لا يعنيه فى هذه اللحظة بالذات الا أن يرزق بولد ؛ ولد قوى سليم يخلفه فى مكانته وفى مركزه الضخم الذى يعد نفسه له . وليكن ذلك بعد ثلاثين عاما أو أربعين ، فلا داعى للعجلة .. كل شىء مرهون بوقته .

وأقبلت عليه فيرجينيـــا ممتقعة الوجه تســأل عن الطبيب باسيليوس وتخطره بأن آلام الوضع قد بدأت . فنهض مسرعا الى غرفة زوجته ليراها مستلقية فى فراشها وقد اختلج وجهها ألما وانقبضت أصابع يديها من شدة ما تقاسيه . فقالت له بصــوت جاف لا نبرات فيه :

ـ لم يحن الوقت بعد .. ان أمامى ساعات وساعات .

ووجد كونستانتيوس نفسه يرسل كلاما لم يكن ليفهم له معنى حتى اقبل الطبيب واضطلع بمهمته . ولاحظ كونستانتيوس أن الرجل كان قلقا مضطربا .

وانتصف الليلُ دون أن يتمكن الطبيب من التوفيق فى مهمته ؟ واستبد القلق بالزوج وبجميع الحاضرين • ونهر كونستانتيوس الطبيب مهددا متوعدا ، وعاود هذا جهوده متوسلا لهيلينا أن تساعده وتستجمع كل ما استطاعت من قوة . واستمر الحال كذلك حتى الساعة الرابعة صباحا دون جدوى . وركع الزوج الى جانب فراش زوجته يتضرع ويبتهل الى قوى القدر الخفية ، ووقف الحاضرون من الخدم يصلون من أجل سيدتهم ، التى كانت مستلقية على فراشها لا حراك بها ، حتى أنها لم تسمع نداء زوجها المتلهف لكى ترنو اليه بعينيها على الأقل .

وفجأة سمع الحاضرون هزيم الرعد داويا يهز أركان المكان . وبالرغم من ذلك ، لم تتحرك الأميرة هيلينا فى فراشها ولم يبد منها ما يدل على أنها تسمع وتعى .

ثم تكرر هزيم الرعد وهطلت الأمطار واكفهر الجو . وفى فترة سكون هدأت فيها أصوات الطبيعة الغاضبة ، بلغت آذان المجتمعين حول الفراش أصوات حوافر الخيل مقبلة فى اتجاه القصر • وأقبل أحد الخدم مسرعا ليعلن قدوم زائر عظيم • وما كاد ينتهى الخادم من قوله ، حتى دخل الغرفة الملك الوالد الذى اتجه الى فراش ابنته وتأملها ، ثم استدار لسائر الحاضرين وسألهم فى صوت امبراطورى آمر أن يتركوه مع ابنته بمفردهما . ولما حاول كونستانتيوس أن يتلكأ ، أمره الملك بأن يطيعه وينسحب مع الطبيب والآخرين • فصدع بما أمر ، وانحنى محييا وغادر الغرفة مع الطبيب .

وما أن خلا له الجو ، حتى اتجه الملك كويل الى فراش هيلينا ؟ ومال عليها يمسح بيده على جبينها وعلى عينيها . ففتحت عينيها واستعادت وعيها ، وما أن رأت والدها يحنو عليها ، حتى ابتسمت له وبادلها ابتسامتها قائلا :

— هيا انهضى يا بنيتى !

— لا أستطيع يا أبت ، لا أستطيع !

— قلت لك ، انهضى !

فنهضت دون أن يساعدها فى ذلك . وأمرها بأن تتقدم الى حيث يقف . وكانت كلما تقدمت نحوه خطوة تراه يبتعد عنها أخرى ، فأنت أنين الموجع قائلة :

ـ ساقاى يا أبتاه ، ساقاى .. اننى ...

ـ تقدمى نحوى ، تقدمى .

فمشت على وهن حتى بلغت المنضدة الكبيرة فى الطرف الآخر من الحجرة .

والقى الملك بكل ما على المنضدة أرضا ، وأمرها بأن تستلقى عليها . فأطاعته ، ولكنه اضطر أن يعاونها فى هذه المرة . وبعد أن مر بيده على صدرها مباركا اياها شعرت براحة لم تشعر بها منذ أيام وليال . ثم أمرها بأن تنهض واقفة على المنضدة . فصدعت بما أمرت به . ولكنها ترنحت قليلا ، وعاودتها آلامها ، وشعرت بأن ساقيها لا تقويان على حملها . وسمعته يأمرها بأن تنثنى الى الخلف ، بعد أن دار دورة كاملة وأصبح خلفها . ولما لاحظ ترددها ، استحثها على أن تلقى بثقلها كله على ذراعيه مهدئا من روعها . ثم دفعها الى الأمام بقوة وعنف لم تستطع معهما أن تكتم صرختها التى أطلقتها مدوية ، جمد لها الدم فى عروق المترقبين لحظة الخلاص فى الخارج . واستدار بعد ذلك ليصبح فى مواجهتها وصرخ فيها قائلا :

ـ تمالكى نفسك يا ايلين ، انك من دم ملكى . هيا اقفزى!.

فتأملت أرضية الحجرة ، وخيل اليها أنها بعيدة سحيقة الغور. فدارت بها رأسها ورفعت ذراعيها فى الهواء ضاحكة ، والقت بنفسها بين ذراعيه . ولكنه كان قد تخلى عنها فى اللحظة المناسبة ليتركها تسقط على الأرض بكل ثقلها على قدميها ، وصرخت من شدة الألم ، وسمعت صرخة أخرى طغت على صرختها ، صرخة الفرح والنصر صادرة عن والدها ، وهو يصيح قائلا :

ـ ادخلوا جميعا !

ثم فقدت وعيها بعد ذلك ولم تدر من أمر نفسها شيئا .

ولما استعادت وعيها ، رأت أول ما رأت وجه كونستانتيوس حانيا عليها في ترقب وقلق . ولكنها وجدت نفسها تتحول عنه بقوة سحرية الى الطفل الراقد في مهده بجوارها . ووقع نظرها بعد ذلك على والدها الملك جالسا في الناحية الأخرى من المهد يتأمل الطفل في سكون وصمت . وكانت أشعة الشمس قد بدأت تتسرب الى الغرفة حاملة معها تباشير الصباح .

ـ أريد أن أرى ولدي ، الى بولدي !.

فقام والدها بحمل الطفل بين لفافاته في عناية فائقة ، وهو يعجب في نفسه من أنها حددت جنسه دون أن يخبرها بهذا أحد ؟ ثم قال لها وهو يودعه الى جوارها برفق :

ـ لقد ولد مع شروق الشمس . أى اسم ستختارين له ؟ !

فسارع كونستانتيوس بالاجابة قائلا :

ـ قسطنطين !

فضحك الملك معقبا :

ـ قسطنطين ، كونستانتيوس الصغير . جميل أن يسمى الولد باسم مشتق من اسم والده ، وان كنت أرى انه سيكون اعظم شأنا من والده ؟

ولما هم الضابط الروماني بالتعليق على ما سمع ، وضعت هيلينا يدها الرقيقة على ذراعه وهي تحدق النظر في وجه والدها وقد تعلقت عيناها بعينيه . واستطرد الملك قائلا :

ـ انه سيملك كل أرض تطؤها قدماه . انه سيكون مصدر غبطة لوالدته وموت لابنه ، وانه سيعيش حتى يرى شجرة الحياة !

- ٢ -

ـ ارفع درعك الى أعلى ـ أعلى من هذا المستوى ـ أعلى !. هكذا يجب أن يكون ارتفاع الدرع . العينان فقط هما اللتان يجب أن تكونا أعلى مستوى من حافة درعك ، حتى اذا ما أمطرك العدو

بسهامه لن تضطر لرفع درعك ـ ولن يكون عليك حينئذ الا أن تحنى راسك قليلا فتسلم هكذا ـ أرايت ! ؟

بذلك كان يصدر الضابط تعليماته الى الصبى .

ـ اننى لن أفعل هذا أبدا .

قالها الصبى غاضبا :

ـ ان العدو سيعتقد اننى أخشاه !.

ـ اننى ألقنك خير أساليب القتال !

ـ اذا كنت تعتقد ذلك فكن مستعدا ، لأننى سأهاجمك !

ـ ان العدو لا يعلن خصمه بأنه سيهاجمه . انه يجب أن ياخذه على غرة !

ولم يترك الضابط فرصة للصبى الغاضب الذى اندفع نحوه شاهرا سلاحه ، وعالجه برفق حتى قهـره . وحاول الصبى أن يعيد الكرة بعد أن سمح له الضابط بالتقاط سلاحه قائلا :

ـ من يا ترى علمك هذه الأساليب غير السليمة يا قسطنطين؟ لست أنا على الأقل . فلتقاتل كرومانى لا كهمجى !.

وكان يجلس فى الشرفة المطلة على الساحة شخصان يتأملان كل ما يجرى فى سكون واعجاب . وعلق كونستانتيوس على ذلك قائلا لزوجته :

ـ ان فاسيليس يعرف واجبه خير المعرفة !

ـ أعرف هذا .. ان ما يقلقنى هو قسطنطين واندفاعه . ان حدة طباعه ستسبب له المتـاعب فى يوم ما .. ها هو ذا يعود لمهاجمة الضابط !

وابتسم كونستانتيوس راضيا قرير العين .. أنه اختبـار فاسيليس ليكون مدربا عسكريا لولده : اختاره بعد أن أبدت هيلينا رغبتها فى أن ينشأ ولدها نشأة عسكرية . يالها من أم مثالية . انها أكثر رومانية من كثيرات الأمهات الرومانيات أصلا .

ودار القتـال بين الصبى وبين معلمه العسـكرى حتى انتهى بهزيمة الأول واصابته بجرح دام . فتحركت أمه فى مقعدها قلقة دون أن تفزع لمـا شاهدته ، وقال الأب :

ـ انه سيستفيد من ذلك . لقد لقنه الضابط درسا !
ـ انه لا يبكى .. انه جدير بأن يكون ابن القائد كونستانتيوس
واقبل أستاذ الصبى ، الاغريقى ، يسعى ليؤكد أهمية دوره فى تربية الصبى قائلا :

ـ سيدى .. ان قسطنطين قد تأخر عن درس الآداب . وها هو ذا قد جرح ، فكيف يستطيع بعد ذلك أن يعى دروسه ؟

فأجابه القائد كونستانتيوس بأن تدريبات الصبى العسكرية أكثر أهمية من دروس الأدب ، وانضمت اليه زوجته فى هذا .. وألح الأستاذ الاغريقى موضحا أنه مسئول عن تعليم الصبى وأنه بحاجة لتأييد والديه ، كما أن صبيا فى الثالثة عشرة من عمره لايجب أن يترك هكذا لنزواته العسكرية .
وصرفت هيلينا الفيلسوف الاغريقى من حضرتها قائلة :

ـ لست احب لابنى أن يصبح عالما .. اننى أريده أن يصبح جنديا كوالده !

وبعد برهة وجيزة أقبل الصبى ومعلمه العسكرى على الزوجين الجالسين فى الشرفة . وبعد أن أدى الضابط التحية لقائده قال:
ـ لقد انتهى تدريب اليوم يا سيدى .
فأومأ كونستانتيوس برأسه قائلا :

ـ لقد رأيت بنفسى تدريب اليوم ، وأنا جد مقتنع به راض عنه . اذهب الى روفوس بالمطبخ وقل له انك موفد من لدى .
وكان روفوس ، المراسلة السابق لكونستانتيوس ، قد أصبح مديرا لمنزله مسئولا عنه .

سألت هيلينا ولدها قائلة :
ـ هل أنت متعب يا قسطنطين ؟!.
ـ قليلا ، ليس الى هذا الحد الذى تتصورين !.

ـ اذا لم يكن بك رغبة فى دراسة الأدب اليوم ، فلا ضير من هذا . ويمكنك أن تصحبنا فى نزهتنا .
واقبل الصبى على والدته معانقا وهو يقول :

ـ انك تستطيعين دائما أن تقرئى أفكارى يا أماه ! ».
فعقب والده ضاحكا :
ـ وانها معى لكذلك !.
وفى طريقهم الى المنزل ، قابلهم رئيس الخدم لاهث الأنفاس ممتقع الوجه . فقال له كونستانتيوس :
ماذا بك يا رجل ؟ هل أنت مريض ؟
ـ مبعوث امبراطورى يا سيدى . الحاكم اليـــكنوس قادم لمقابلتك !.
فعقد كونستانتيوس ما بين حاجبيه غير أن نبرات صوته لم تنم عما يختلج فى نفسه .
ـ دعه يدخل .
وبعد أن خرج رئيس الخدم تبادل كل من الزوج والزوجـة نظرة خاطفة .
قال كونستانتيوس على أثرها :
ـ ان مثل هذه المقابلة كانت تعنى مالايسر فى الماضى. أما فى عهد دقلديانوس فهى شىء آخر ... فلسنا فى عهد نيرون أو..!
ـ هل لك معرفة بالمبعوث ؟
ـ اليكتوس .. لا أظن ، أعتقد اننى مضطر للتخلف هنـا ». اذهبى انت مع قسطنطين . لعله حضر فى طلب المزيد من القوات!.
ـ ولمـاذا لا ابقى معك ؟
ـ كلا . لا مانع من استقبالك له ثم تنصرفين بعـــد ذلك . أعتقد أن هذا أفضل !.
وعاد رئيس الخدم يتبعـــه المبعوث الأمبراطـــورى . وكان اليكتوس رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، يحمل بينهما راسا قريبة الشبه براس الطيور الجارحة . وشعرت هيلينا بالنفورمنه بمجرد أن وقع نظرها عليه . وقالت بعد تبادل عبارات المجاملة :
ـ ارجو أن تأذن لى ولولدى بالانصراف حتى تتفرغا لما قدمت من أجله .
وانحنى المبعوث تحية واحتراما ، وغادرت القاعه يتبعهـــــا ولدها قسطنطين ».

وبعد أن خلت القاعة الا منهما ، سلم المبعــوث الرســالة الامبراطورية لكونستانتيوس الذى ظل واقفــا حتى ينتهى من تلاوتها كما تقضى بذلك التقاليد . وظل المبعوث يحدجه بنظراته لعله يتبين من ملامح وجهه رد فعل الرسالة فى نفســه . وكانت الرسالة بمثابة منشور دورى من الامبراطور قلديانوس الى قواده وجنوده وحكام الأقاليم ، يتضمن ارادة الامبراطور التى تنــازلت بالانعام على القيصر مكسيمانوس بلقب امبــــراطور تحت اسم أغسطس ، وأنه سيصبح الحاكم الأعلى لايطاليا وافريقيا واسبانيا وفرنسا (بلاد الغال) وبريطانيا ، بينما يحتفظ دقلديانوس بحكمه لبلاد تركيا ومصر وآسيا . وعلى كل القواد والقوات فى البــلد التى أصبحت تحت سيطرة ماكسيمانوس أن يقسموا يمين الولاء لامبراطورهم الجديد .

وبعد أن فرغ كونستانتيوس من قراءة الخطاب ، قال بصوت هادىء :

ـ يا لها من أنباء . ان جلالة الامبراطور قد حذا حذو ماركوس انطونيوس (مارك انطوان) . أن فى ذلك الخــير كل الخــير للامبراطورية .

ـ هذا صحيح .

ـ وانه اختار لهذا خير من يصلح لهذا المنصب السامى .

ـ أجل . أجل .

ـ سأصدر أوامرى الى قواتى بالتجمع لهذه المناسبة . وأظن انك ترغب فى حضور هذا الاستعراض ، مالم تحــل واجباتك دون ذلك ! .

ـ قبل أن أبلغك بقرارى ، أحب أن أسلمك رسالة امبراطورية أخرى ! .

ـ رسالة أخرى ؟ !

ـ اليك الرسالة ! .

وانحنى مرة أخرى وهو يتسلم الرسالة الثانية. وأسرع يفضها متلهفا لكى يعرف مابها . وقرأها ليجد انها من ماكسيمانيوس ، امبراطوره الجديد الذى لم يضيع وقتا فى مباشرته لمهام منصبه

السامى • وتضمنت الرسالة دعوته لحضور مؤتمره فى روما للتشاور فى أمور عاجلة • وترك له الامبراطور اختيار من ينوب عنه فى قيادة قواته أثناء غيابه •

ـ متى سترحل الى روما ؟

ـ بهذا سأله المبعوث بمجرد أن طوى القـــائد كونستانتيوس الرسالة ، دلالة على أنه فرغ من تلاوتها •

بمجرد أداء القوات للقسم الجديد ، كما أعتقد •

ـ ان جلالة الامبراطور لن يرضى عن أى تأخير • يحسن بك أن تعود على ظهر السفينة « تيتان » انها من السفن السريعة •

ـ فليكن • سأرحل غدا وأرجوك أن تقبل ضيافتى الليلة •

ـ شكرا • ترى من سيحل محلك فى غيابك ؟

ـ الضابط جايوس فاليريوس •

ـ وهل يستطيع أن يقود هــــذا العــــدد الكبير من الضباط والجنود ؟

ـ لو لم يكن كذلك لما اخترته لهذه المأمورية .! •

ـ هل تسمح بتقديمه الى ؟

ـ ستراه الليلة ساعة تناول العشاء •

ـ ٣ ـ

« ان مراسم الاحتفال الجديد » ، بهذا بدأ كبير أمناء الامبراطورية أصدار تعليماته بعصبية ، الاحتفال الذى سيشرفه صاحبا الجلالة الامبراطوران دقلديانوس وماكسيمانيوس •

ـ أطال الله بقاءهما وأيد حكمهما ـ ستكون كما يلى :

ستدخل القاعة الداخلية فى أعقابى ، حيث أقدمك الى رئيس الحرس الامبراطورى • ثم سننتقل بعد ذلك الى القاعة المستديرة حيث تجد غيرنا من الزوار • وبعــــد ذلك نرتقى الدرج الى غرفة الاجتماع ، ماهو اسمك الذى ذكرته لى ؟

ـ القائد كونستانتيوس •

ـ صحيح ، صحيح .. ان اسمك مدون هنا •

ثم نشر كبير الأمناء بين يديه صفحة بها مئات الأسماء :

ـ ان مكانك بين القائد باسيانوس والقـائد تيرينتيوس ..، وسنقوم ...

ـ أولوس تيرينتيوس ؟ . من الفيلق الرابع عشر ؟ !

ـ أجل ، أجل ، ولا أحب أن يقاطعنى أحد .. ان مراسم هذا الاحتفال معقدة الى حد ما ، ولدى الكثير مما يجب أن أقوم به .. ماذا كنت اقول ؟ . آه ، سنقوم بدخول قاعة الاجتماع فى صف واحد حيث نجد كبير الياوران الذى سيتولى تقديم الوافدين بعضهم الى بعض . وأحب أن الفت نظرك الى نقطة فى غاية الأهمية .. فبمجرد أن يشرف جلالة الامبراطور قاعة الاجتمـاع ، يجب أن تكب على الأرض ساجدا !

ولم يصدق كونستانتيوس ما سمعته أذناه . أو يسجد قواد الرومان كالأرقاء والعبيد ؟ . ماذا نزل بروما والى أى منحـدر تنحدر ؟ ! لقد قيل الكثير عن فساد جهاز الحكم فى روما وتناقل الضباط فى دوائر الجيش غير القليل من وقائع الرشوة والانحلال، ولكن احدا ما لم يكن يتصور أن يبلغ الاسفاف بهؤلاء الأباطرة هذا الحد الذى يبذل قواد الجيش وضباطه الكبار ، فيطلب منهم أن يسجدوا ويكبوا بجباههم على الأرض .

ولم يعر كونستانتيوس ، كبير الأمناء انتباها فيما كان يتلوه من أوامر أخرى ، وقد ضاق ذرعا بما يسمع :

ـ اننى لن استطيع أن أعى كل ذلك فى درس واحد . لقـد قدمت الى هنا لأقدم تقريرى لا لأستمع الى دروس كيفية الانحناء والركوع !.

ـ على رسلك يا سيدى القائد ، ولـكن لا تلومن الا نفسك بعد ذلك ، اذا ما تعقـدت الأمور وساء الموقف . لقد قمت بما هو مفروض على بحكم منصبى. ان جلالة الامبراطور لا يتساهل دائما.

ـ لم أسمع عن ماكسيمانيوس انه لين الجانب . هيا بنا نبدأ المراسم . القاعة الداخلية أولا ، أليس كذلك ؟

واستقبله رئيس الحرس مستفسرا عن الأحوال فى بريطانيا ، دون أن ينتظر اجابة منه ، بل ولاه ظهره وتقدمه الى القاعـة المستديرة ، حيث وجد بها حشدا من الناس ، ملأت اصواتهم جو

المكان ضوضاء وطنينا . وتبين كونستانتيوس وجه تيرنتيوس بين الحاضرين ، فاخترق صفوف الواقفين حتى تمكن من مصافحته وتحيته قائلا :

ــ لقد طال بنا الفراق ، انك لم تتغير كثيرا . ما هى أخبار الفيلق الرابع عشر ؟

ــ وأنت أيضا لم تتغير كثيرا . كم من الوقت مضى منذ آخر لقاء لنا ؟

ــ الكثير . لقد تزوجت من فتاة بريطانية وانجبت طفلا أو قل صبيا ، فقد بلغ الثالثة عشرة من عمره .

ــ يسرنى أن اسمع ذلك ، ابعث به الى لألقنه الكثير مما لا يتقنه أبوه .

وضحك مسترسلا :

ــ لقد تعلمت الكثير فى مصر ...

ــ أوبلغت بالأوامر الجديدة .

وقبل أن يجيب ، تلفت فيما حوله ، ولما اطمأن الى أن أحدا لم يسمعه قال هامسا :

ــ يا عزيزى ، ان هذه المظاهر هى كل مايضفى عليهم قدسيتهم تلك هى المراسم المتبعة فى الاحتفالات الفارسية .

ــ ترى لمن من الامبراطورين ستكون الصدارة ؟

ــ ليس هذا من شأننا ، لقد اصبحنا من نصيب ماكسيمانيوس

وضحكا معا ، وتبادلا التعليقات على ما استجد من أوضاع ، وعجبا معا من تلك الأوامر الجديدة التى تفرض عليهم السجود ، وراحا يستعرضان ظروف الامبراطورية ، حتى قطع عليهما حديثهما صوت يدعو الحاضرين للانتباه :

ــ ستصعدون الدرج بترتيب النداء على أسمائكم .

واخذ ينادى الأسماء ، وتقدم كل من سمع اسمه فى صف الاستعراض الطويل .

وكانت قاعة الاجتماع فخمة فسيحة تعج بالضباط ورجال الحرس ، يتوسطها كبير الياوران مشيرا الى كل قادم بأن يتخذ المكان المعين له .

وعلى حين غرة من جميع الحاضرين بالقاعة ، انزاح الستر الموجود فى طرفها الآخر ، وبرز منه رجل ضخم متين البنيان ، قد بدا بوجهه الملتحى وشعره الكث وعنقه الغليظ ، كثور هائج يطل على الجموع برأسه القبيح متفرسا لينتقى فريسته .

وكان لظهوره المفاجيء بمعطفه الداكن الاحمرار ، رد فعل جمد له الحاضرون فى أماكنهم ، واستقر كل فى مكانه ، وقد تعلقت أبصارهم به .. حتى كبير الياوران نفسه ، وقف مبهوتا وكأنه على وشك أن يفقد وعيه . وارعد الامبراطور بصوته الأجش قائلا :

ـ أين هو مامرتينوس ؟ وأين هو كونستانتيوس ؟

ـ هنا يا صاحب الجلالة .

ـ اقتربا منى ! ولينصرف سائر الحاضرين ! .

وتقدم الضابطان من الامبراطور الذى استدار وعاد ليختفى وراء الستر ، وتبعه الضابطان الى الغرفة الداخلية . ومن هذه الغرفة تقدم الامبراطور الى دهليز ومنه الى غرفة أخرى استقر رأى الامبراطور أخيرا على أن يتوقف بهما أمام منضدة قد نشرت عليها خريطة كبيرة وقف حولها بعض الضباط العظام . تعرف كونستانتيوس منهم على جاليريوس وفلتينيوس وابن الامبراطور ماكسينتيوس .

وبعد أن رد الامبراطور على القائدين تحيتهما بصورة تبين فيها كونستانتيوس كل سمات الغضب والثورة ، ورأى من وجهه المربد ما أكد له ملاحظته هذه .. ابتدره الامبراطور قائلا :

ـ اذن فأنت القائد كونستانتيوس ! .

قال ذلك بصوت أجش تهتز نبراته غضبا . اذن فقد يعنيك أن تعلم بأن جنوب بريطانيا ، الاقليم التابع لك ، قد احتله الأعداء

ـ ٤ ـ

ومرت برهة قصيرة خيل لكونستانتيوس أن الامبراطور قد فقد صوابه . غير انه تبين من ملامح من يحيطون به من قواد أن الأمر ليس كذلك ، وانه أشد من هذا خطورة وجدية . أى عدو هذا الذى احتل بريطانيا ؟ أهو كوربو قائد الاقليم الشمالى ـ ولكنه

ليس عدوا . وان كان قد فعل ذلك لكان الامبراطور قد قال بانها ثورة وليست احتلالا .. أو يكون كاروسيوس قائد الأسطول ؟ انه هو كاروسيوس وحسبه هذا .

ـ أهو كاروسيوس يا مولاى ؟

وظل كونستانتيوس رابط الجأش متمالكا لزمام تفكيره مرددا بينه وبين نفسه :

ـ انه كاروسيوس الرجل الذى كان موضع شك الامبراطور ، والذى احتل مكان الصدارة ممن أدرجهم الامبراطور فى القائمة السوداء . هذا الرجل الذى كان يعد الامبراطور العدة لمهاجمته قد بادر هو وسبق الامبراطور الى ذلك وأسرع بأسطوله الى بريطانيا واحتلها . أو كان اقصاؤه عن بريطانيا عفوا دون تدبير ؟ أو يمكن أن يكون فى الأمر مادس على الامبراطور حتى يأتى أمر استدعائه فى الوقت المناسب ؟

وبينمـا كان كونستانتيوس غارقا فى تأملاته هـذه ، كان الامبراطور يزداد ثورة وهياجا ، ضاربا المنضدة بقبضة يده مهددا متوعدا فتقدم كونستانتيوس خطوة الى الأمام منتصب القامة . فقال له الامبراطور :

ـ ماذا تراك قائلا ؟

ـ لقد استدعيت بناء على أمر من جلالتكم . وأبحرت بعد أن تلقيت هذا الأمر فورا على ظهر السفينة التى أمرتم بها جلالتكم وقد قطعت بى هذه السفينة المسافة فى ثلاثة وستين يوما ..

ـ كأنك تريد أن تلقى باللوم على عاتقى . ان هـذا القـائد لا تنقصه الشجاعة !

ـ وانى لأرجو أن أعيد للامبراطورية ما فقدته .

ـ وانى لك أن تعلم بما وقع هنا أيها القائد ؟

ـ اننى لا أعرف أكثر مما أحطتنى به علما . وما دام المجرم هو كاروسيوس : فانى لمستطيع أن أتصور كيف فعل ذلك !.

ـ دعنا نسمع ما لديك من أفكار وآراء قيمة .

ـ هل لى أن أسأل واحدا قبل أن أدلى بما لدى ؟

ـ لا مانع . أوجز فى القول .

ـ هل كلفت الليكتوس بتسليمى رسالتين من جلالتكم ؟

ـ لقد أرسلت فى طلبك فعـلا . ولـكننى لا أعرف من كان الرسول الذى كلف بهذه المأمورية .

ثم سأل أحد قواده قائلا :

ـ من الذى حمل رسالتى اليه ؟ !

ـ الضابط سترابونيوس . انالليكتوس منرجال كاروسيوس يا مولاى ! .

فأومأ كونستانتيوس برأسه قائلا :

ـ لقد دار بخلدى هذا . وهذا يفسر سر تعجله لسفرى .. لقد أوهمنى بأننى ان تأخرت أثرت غضبك ، حتى انه لم يوافق على تخلفى يومين حتى تؤدى القوات يمين الولاء لجلالتكم . ليس من شك أن كاروسيوس قد استطاع ان يمنع سترابونيوس من مواصلة مهمته عندما وصل الى جيسورباكوم فى طريقه الى بريطانيا . لقد كان كاروسيوس غير واثق من نوايا الامبراطور بالنسبة لشخصه. ولكنه لم يستطع أن يتثبت منها . فما كان منه الا أن انتهز الفرصة لابعاد حاكم القطاع الجنوبى فى بريطانيا ليخلو له الجو . وما ان اطمأن لابحارى حتى وجه ضربته التى أعد لها ..

ـ هذا ما كان فعلا . كيف عرفت كل ذلك ؟

ـ فضلا عما ذكرته لمولاى من مقدمات ، كان المد فى صالحه بعد ابحارى ، وهو من الأمور التى يجب على كل راغب فى غزو بريطانيا أن يحسب لها ألف حساب . واذا سـمح لى مولاى عرضت على مسامعه الخطة التى أرى انها تكفل لنا بلوغ ما نريد .

وعرض كونستانتيوس على الامبراطور خطته التى صادفت لديه قبولا ؛ غير أنه تبين من اقوال قائده أنالشواطىء الجنوبية لبريطانيا كانت أضعف المنافذ الىداخل هذه البلاد ، فعاد راعدا وهو يصيح

ـ أيها القائد المكلف بحماية هذا القطاع ، كيف تركت هذه الجهات ضعيفة فى مقاومتها حتى تمكن كاروسيوس من غزوها واقتحامها بهذه السهولة ؟

وفى هدوء الواثق من نفسه أجاب كونستانتيوس :

ـ لطالما أرسلت بالاحتجاج تلو الآخر ، على اضعاف جيش

الاحتلال وتخفيض عدد قواته . ولقـــد بلغت تلك الاحتجاجات أحد عشر احتجاجا فى السنوات المـاضية .

فلم يجد القائد الأعلى ، ماميرتينوس ، بدا من التدخل قائلا :

ــ اننا نتلقى الكثير من هذه الطلبات يامولاى. فاذا ما استجبنا لـكل طالب منها ، لمـا اسـتطعنا أن نستفيد بما نريده من قوات عندما يقتضى الأمر هذا .. ثم انه لم يكن هناك من الأسباب مايدعو لتقوية الجبهة فى بريطانيا ..

فقال الامبراطور متهكما :

ــ وهذا ما أثبتته الحوادث فعلا !

وعقب كونستانتيوس قائلا :

ــ ثم ان الغزو تم بمعرفة الاسطول الرومانى المفروض فيه أن يحمى شواطىء بريطانيا ويصد أى اعتداء عليها !

ــ ان انتصارك أمر موثوق به . يكفى هـذا الآن . يمكنك أن تتناول طعامك معنا يا كونستانتيوس ، وأياكم من أن يطرق أحدكم موضوع بريطانيا خلال النصف ساعة القادم .

ولم يكن كونستانتيوس قد تنبه الى تلك المائدة المعدة فى طرف الغرفة الآخر . كما أنه لم يـكن قد لاحظ السيدتين الجالستين اليها . وعاد الامبراطور ليتخذ مـكانه من المائدة وتبعه القواد ، وأقبل الخدم يقومون على خدمتهم وتقديم صحاف الطعام واحدا بعد الآخر ، وكان مقعد كونستانتيوس فى مواجهة كبرى السيدتين وقدمه القائد العام الذى كان يجلس الى جانبه اليها وعرفه بها .. أنها تيودورا ابنة الامبراطور ، أو بمعنى أدق ابنة زوجته . وكانت رشيقة فاتنة جذابة .

وتساءل فيما بينه وبين نفسه ، عما اذا كان لزاما علیـه أن يتجاذب معها أطراف الحديث من عدمه . ولكنها سرعان ما جنبته هذه الحيرة بقولها :

ــ لعلك فوجئت بهذا الذى وقع فى بريطانيا ؟ لا تحمل نفسك عناء الرد اذا كنت لا ترغب فى ذلك ! .

ــ انك فى غاية المجاملة يا سيدتى ! .

وفى الحق انه كان بحاجة الى أن يسارع بالعودة الى بريطانيا ولكنه كان بحاجة الى ان يخلو الى نفسه ليتدبر امره . ودان بخلده أن ينهض مستأذنا ، مطالبا بتزويده بالسفن والقوات اللازمة لمهمته الشاقة العسيرة .

وعندئذ سمع الفتاة الصغيرة التى كانت تجلس بجوار تيودورا والتى لم تتجاوز السابعة من عمرها ، تقول له :

ـ انا فاوستا ! .

ولما وجدته لا يهتم بها لانشغاله بما كان يفكر فيه عادت تقول له محتدة :

ـ انني شخصية لها أهميتها ، الست ترى ذلك ؟ انني ساكون امبراطورة فى يوم من الأيام !!

فقالت لها تيودورا وهى تتأمل كونستانتيوس معتذرة :

ـ صه يا عزيزتى .

فقالت الفتاة الصغيرة محتجة :

ـ أليست هى الحقيقة ؟ انك لتعرفين هذا . سأصبح امبراطورة ، وعندئذ سيكون هذا هو الرجل زوجى .

فضحكت تيودورا ولم تعلق بشيء . وهنا تساءل الامبراطور عما قالته الصغيرة وأضحك تيودورا . فأعادت تيودورا على مسامع الأمبراطور ما قالته فاوستا . فابتسم الأمبراطور وهو يرمق حاكم جنوب بريطانيا بنظرة تقدير . وعندئذ أجاب كونستانتيوس على سؤال الصغيرة قائلا :

ـ عندما تشبين عن الطوق سأكون قد تقدمت فى العمر ، فضلا عن انني رجل متزوج كما تعرفين .

ـ لا عليك من هذا كله .

وعندئذ ضحك جميع الحاضرين ، باستثناء تيودورا التى لم تشاركهم ضحكهم . بل ولاحظ كونستانتيوس مسحة من الخوف تكسو وجهها الفاتن . ومالت الى الأمام وهى تسأله :

ـ هل تقيم زوجتك فى بريطانيا ؟

ـ أجل . زوجتى وابنى أ.

فأشاحت عنه بوجهها . ولما عادت لتواجهه كانت عيناها مغرورقتين بالدموع . وسمعها تقول له :
ــ يا للرجل المسكين ! يا له من أمر شديد الوقع على نفسك !
فحملق كونستانتيوس في وجهها ، ولاحظ أن جاليريوس الجالس الى جانبها يبتسم في وجهه .
اما الامبراطور فكان منهمكا في التهام طعامه . ولم يكن بوسع أحد ان يعرف ما يجول بخاطره .

ــ ٥ ــ

قالت هيلينا وهي تستحث الخطى :
ــ سنصل الى غايتنا عما قريب ، لقد اقتربنا من المنزل .
فرفع قسطنطين راسه في شمم قائلا :
ــ لست متعبا يا أماه .
فابتسم الضابط فافونيوس أو فاسيليوس كما كان يحب أن يسميه قائده ، لقد كان جد متعب ، هو وروفوس وشرذمة من الجنود الذين انضموا اليهم . هذه هي الروح التي يجب أن يتحلى بها ابن كونستانتيوس وربيب فافونيوس في التدريب العسكري .
وبعد أن أصدر الضابط أمره للجنود بتسوية صفهم ، ركض بجواده الى حيث لحق بهيلينا قائلا :
ــ هل تسمحين بكلمة يا سيدتي ؟
ــ هات ما عندك . ترى ماذا تريد أن تقول ؟
ــ شيء مما تعلمته من جندي عظيم منذ عدة أعوام . اذا ماكنت ممتطية جوادك في وقت الحرب ، يحسن الا تفكري في شيء . يجب الا تجهدي ذهنك بالتفكير ، حتى يكون مستعدا للتفكير عندما يجد الجد .
ــ شكرا يا فافونيوس . سأجتهد أن أعمل بنصيحتك .
واشتم في مسيرهم رائحة الدخان تهب عليهم من الشمال الغربي . ترى هل اقتربوا من كويل كاسترا ؟ لحسن حظهم انهم

يسيرون بين اشجار الغابات التي تحجبهم عن الأنظار . ان السير في مكان مكشوف غير مستحب في أيام الحرب والنزال .

ينصحها الضابط بألا تفكر ! وكيف لا تفكر ؟ أو يمكنها أن تنسى منظر دوريو فيكس رئيس الخدم ، وهو يصـــعد الدرج ركضـا وقد سالت الدماء من عنقه . وما أن وقع نظره عليها حتى توقف محاولا أن يتمالك نفسه محييا وهو يقول لها :

سيدتي : لعله من الأفضل أن .. ثم تهاوى الى الأرض جثة هامدة . هل يمكن الا تفـكر في ذلك ؟ والا تستعرض ما كان بعد ذلك عندما عادت مسرعة الى داخل البيت طالبة النجدة ، باحثة عن ولـدها قسطنطين الذى كان يتلقى تدريباته العسـكرية مع قافونيوس . وبعد ذلك اختلط الحابل بالنابل وسـادت الفوضى أركان البيت . هل يمكن أن تنسى اللحظة الحاسمة في حياتها ؟ عندما اقبل الليكتوس ومعه ستة من الرجال . وهناك ، في المدخل الخلفي للبيت وقف يبتسم لها محييا بكل أدب واحترام قبل أن يلقي على مسامعها ، وعلى مسامع من كان يقف معها ، أنباء استيلاء كاروسبوس على لندنيوم وتسليمها بدون مقاومة ، وتقدم قواته البالغ عددها مائة الف مقاتل في قطار جنوب بريطانيا . ثم راح يطنب في صفات كاروسيوس ، وكيف سيجعل من بريطانيا دولة مستقلة عن روما . وعلى هذا النمط من الحديث انهى خطابه اليهم وهو يبتسم ابتسامته الصفراء .

وعندما وقف قسطنطين يصغى اليه قلقا نافد الصبر . وما أن توقف الليكتوس ، حتى أسرع الصبى قائلا :

ـ ترى ما هو رأى والدى في كل ذلك ؟

فطرقه قافونيوس بذراعه قائلا :

ـ مهلا أيها الجندى .

وبعدها عادت هيلينا الى داخل المنزل حيث انفردت بالليكتوس واستطاعت أن تواجهه بما يدور بخلدها .

ـ انها حركة عصيان ضد الامبراطور . انكم ستدفعون ثمن فعلتكم الشنعاء غاليا .

فضحك ضحكته الصفراء قائلا :



ـ لست أعرف الا امبراطورا واحدا أعترف به ؟

ـ انه كاروسيوس . أعظم رجال عصره . وما ماكسيميانوس ودقلديانوس الا حثالة القوم اذا ما قورنا به .

ـ لقد تحدثت فيما تحدثت به عما سنراه من خير على يدى امبراطورك المزعوم . وأرى ان هـذه الأيام قد بدأت فعلا . بدأت بقتل أحد رجالك لرئيس خدمى !!

فاعتذر لها الليكتوس بأن ذلك كان خطأ غير مقصـود ، وبأن ما حدث من النتائج الحتمية لحالة الحرب التى تمر بها البلاد ، وأكد لها أن شيئا من ذلك لن يتـكرر ، وأنه يضمن لها ولكل من يلوذ بها السلامة والامان ، مادامت لا تعادى الحـكومة الجديدة ، وتعهد بأن يكفل لها حيـاة رغدة هادئة . وما عليهـا الا أن تذكر جميل صنعه بابعاده لزوجها عن البلاد فى الوقت المناسب ليجنبه ما كان سيتعرض له من اخطار .

فغلت الدماء فى عروقها ، ولم تشعر الا بيدها ترتفع وتهوى بها على صدغه ، مما أثاره ، فتقدم منها وقبض على كتفيها بعنف ، وقد اتقدت عيناه شررا .

وحاولت أن تتخلص من قبضتيه ، وفجـأة رأت الضـابط فافونيوس يكيل له اللكمات فترنح المبعوث الأمبراطورى واستل سيفه من غمده . فقال له فافونيوس :

مرحى ، مرحى . نحن بحاجة الى شىء من الترفيه .

وأسرع يستل سيفه من غمده هو الآخر .

وكان الليكتوس يصرخ مناديا على رجاله بأعلى صوته . فقال له الضابط :

ـ لا تتعب نفسك . لقد اتخذنا حذرنا من رجالك .. لم يبق الا أنت وأنا وجها لوجه فهيا استعد .

ودار القتال بين الرجلين ، وكان الليكتوس مدافعا أكثر منه مهاجما . وبعد برهة وجيزة دخل قسطنطين القاعة ، والدماء تنزف من جرح فى صدغه ، وبيده سيف يلوح به مهددا . ورآه فافونيوس بطرف عينه فقال له :

ـ راقب ما يجرى فقط ولا تتدخل • هل أمنتم جانب الرجال الستة ؟

ــ اجل . دعنى اشترك معك . ارجوك .

ــ ان فى اقتراحك ما يشرفه . دع لى هذا الكلب الحقير !.

ولم يستمر النزال بين المتبارزين طويلا ، حيث عاجل الضابط المبعوث بضربة سيف فى جبهته ، سالت بعدها الدماء على وجهه غزيرة ، فألقى سيفه من يده وسقط على الأرض يتلوى من الألم . والتفت الضابط بعد ذلك الى هيلينا قائلا :

ــ آسف لما حل بالغرفة من فوضى يا سيدتى .

فأجابته هيلينا ضاحكة :

ــ بل شكرا يا فافونيوس .

وهكذا تم اندحار القوة الأولى التى هاجمت منزل حاكم جنوب بريطانيا . فهناك فى الحديقة كان الرجال الستة تحت التحفظ فى حراسة روفوس ، كما كان هناك كثير من الخدم والعبيد فى انتظار أية اشارة من سيدتهم . بعد أن أودعوا الأسرى قبو المنزل .

وما كاد المنتصرون ينعمون بما تحقق لهم من نصر ، حتى أقبل رسول القائد بالنيابة ، جايوس فاليريوس ، بكلمة عاجلة تتضمن نصيحته لهم بالرحيل فورا الى الشمال ليكونوا فى حماية القائد كورنيو ، حاكم القطاع الشمالى .

وقد بلغت لهم هذه الرسالة فى المساء . وبعد استعراض هيلينا للموقف مع فافونيوس وجدت أن فاليريوس على حق ، وبالذات لأن الليكتوس ليس بالرجل العادى ، فقد يقبلون للبحث عنه . كما علمت هيلينا من فافونيوس بأن الليكتوس لم يفارق الحياة بعد ، بالرغم مما نزف منه من دماء غزيرة ، لأنه تعمد الا يصيبه فى مقتل .

وقررت هيلينا ان ترحل عملا بمشورة نائب القائد ، ولكن الى قصر والدها وليس الى القطاع الشمالى . كما أشار عليها بذلك . وأمرت باعداد الجياد وما هم بحاجة اليه من أسلحة ومؤن . وقررت أن تسرح الخدم والعبيد ليذهبوا انى شاءوا ، وأن تستبقى روفوس معها فقط .

وصعدت الى غرفتها بالطابق العلوى ، واحضرت بعض الحلى والنقود التى وزعتها على الخدم قائلة :

ـ من الخير لكم ان تذهبوا بعيدا عنى حتى لا ينالكم ما قد اتعرض له من اذى بحكم منصب زوجى . اننا سنلتقى فى يوم ما بعد أن تعود الأمور الى نصابها وتستعيد روما مكانتها . ان هذه الحال لن تدوم طويلا .

وبعد نصف ساعة كانوا فوق ظهور جيادهم : هى وقسطنطين وفافونيوس ورفوس ، الذى كان يسحب جوادا آخر خلف جواده محملا بما يحتاجون اليه من مؤن وأغطية وغير ذلك مما لا غنى لهم عنه . وكانوا آمنين بعض الشىء ؛ لأنهم اتخذوا من الليل ستارا متجنبين الطرق العامة ومسالك المدن .

وقابلوا فى طريقهم بعد مسيرة بضعة أميال . اثنى عشر جنديا من جنود احدى كتائب الفياق المشربن . وما أن وقع نظر هؤلاء على فافونيوس ورفوس ، حتى هللوا فرحين بهذا اللقاء . وصارحهم فافونيوس بحقيقة الموقف قائلا :

ـ انكم ان اخترتم الانضمام الينا ، كنتم لا محالة من الهالكين ورأى ان تسلموا انفسكم كأسرى الى العدو الخائن حتى تتكشف الأمور ، ولكنهم آثروا ان يقيموا على ولائهم لقائدهم ، مهما يكن من أمر الأخطار التى يتعرضون لها بقرارهم هذا . وعاد فافونيوس بعد ثلاث ساعات من هذا القرار بعد ان تمكن من أن يدبر لهم اثنى عشر جوادا ..

تابع الركب سيره بعدها فى غابة ترينوفانت فى طريقه الى كويل ـ كاسترا . وفى الطريق سأل الصبى أمه :

ـ أماه . متى سيعود والدى ليطارد هؤلاء الخونة ! ؟

ـ لست ادرى يا ولدى متى سيعود .. كل الذى أعرفه اننى واثقة من عودته !.

ـ انا الآخر واثق من عودته . اننى أتساءل عن موعد عودته ؟ هل سيطول بنا الانتظار شهورا ؟!

ـ من يدرى ؟ دعنا نأمل خيرا !.

من يدرى ؟ ومن يستطيع أن يجزم بشىء ؟ ان كونستانتيوس

فى روما مع الأمبراطور . وقد يرى الأمبراطور أن يرسل غيره من القواد ويقرر استبقاءة باعتباره مسئولا عما حدث .

وتبينت بعد قليل ، انها تسير بين أشجار البلوط التى يحبها والدها . ووقع نظرها على الصخرة الكبيرة الأثيرة عند والدها ، والتى كان يفضل الجلوس عليها . وراحت تجيل عينيها فى الظلام، لعلها أن تلمح شيئا أبيض ، كما كانت تفعل من قبل .

ورأت فافونيوس ، الذى كان يسير فى المقدمة يرفع يده محدقا النظر فيما وقع عليه بصره . وتوقف الركب عن متابعة السير ، الا من هيلينا التى تابعت سيرها ، مشيرة الى قسطنطين أن يحذو حذوها . وسمعت فافونيوس يهمس قائلا :

ــ ان أحدا ما يجلس هناك . وأومأت برأسها موافقة مندفعة بجوادها الى حيث كان يجلس والدها .

ــ مرحبا يابنتى مرحبا بحفيدى .

ونهض هيلارى ، تابعه ، الذى كان يجلس عند قدميه ، واقفا وانحنى محييا سيدته .

وأسرعت بالترجل عن ظهر جوادها ، واندفعت الى أحضان والدها ، تدفن وجهها فى صدره وتجهش بالبكاء :

ــ لقد حضرت يا ابنتى فى الوقت المناسب . تعال انت الآخر يا ولدى . هيلارى ، اصطحب الضابط ورجاله الى القصر وقدم لهم الطعام والشراب . ثم عد الينا باحدى العربات وبالموسيقيين .

وأسرع قسطنطين بالترجل عن ظهر جواده هو الآخر ، وتلقاه الملك بين ذراعيه وأجلسه بجواره ، ومضى هيلارى لينفذ ما أمر به .

وربت الملك بيده على رأس هيلينا ، فرفعت وجهها اليه قائلة :

ــ أبتاه . لقد عرفت كل ما جرى . أنا واثقة من هذا . ترى متى سينتهى كل ذلك ؟ . وبماذا تشير على أن أفعل ؟

ــ أن الغزاة يجيئون ثم يذهبون . لا دوام الا للحق !.

ــ ولكن روما ــ روما ــ هل انتهى أمرها ؟!

ـ اذكر يوما كنت تتمنين فيه ذلك • ايلين ـ ألم يصدر هذا منك ؟!

ـ لقد كنت طفلة يا والدى •

ـ ولا زلت كذلك • انك لم تتعلمى الا القليـل • ولـكنك ستتعلمين الكثير قريبا •

ـ اننى أحب زوجى ، أحبه من كل قلبى !•

ـ وهو يفكر فيك الآن • ولكنه قد لا يسـتمر على ذلك طويلا • لئن كنت تحبينه حقا ، فلتحبينه بكل ما تملكين من قوة•! وليكن حبك له فى جميع الأحوال • ليكن حبك له فوق مستوى الأسى وخيبة الأمل • هذا الحب سيؤتى ثمارة عندما يحين الحين•! ولترتفعى بحبك على كبريائك • ضعى هذا نصب عينيك ، ليكن حبك أقوى من كرامتك ، عندما يتطلب الأمر هذا منك !•

ولم تستطع هيلينا أن تضع النقط فوق الحروف ، ولكنها شعرت بما ينطوى عليه حديث والدها ونصائحه من تحـذير وتلميح خفى • فليس فيما سمعت ما يطمئن • فقالت له :

ـ بماذا تشير على ؟• هل أقيم معك ؟• وهل يكون الصبى هنا فى أمان ؟

ـ كلا يا ايلين • لا أنت ولا أنا بمستطيعين البقاء هنا • فعلى كل منا أن يذهب فى طريقه !•

ـ ولم لا يا والدى ؟

وتأملت وجهه الهـادىء المبتسم الوديع • ولـكنها تبينت من بين خلجاته وهن نور عينيه أن أيام الرجل ، بل ساعاته فى هذه الحياة قد قاربت نهايتها • ثم سمعته يقول لها بصوت حالم :

ـ هدوءا يا ابنتى • اننى رجل سعيد قد بلغ من العمر عتيا•! وما أظنك براغبة فى تعكير صفو هنـائى ، أليس كذلك ؟• اذن فلتستمعى الى ، فمهما يكن من أمر ما تفعلين ـ وانى لخبير بقلبك الكبير وأثق من اخلاصك ـ فانك لن تنسينى فى تعاسة شعبى •! لا تحرضيهم على مقاومة العدو الغاصب • ان الأوان لم يؤن بعد •!

حتى روما ، تتطلب الكثير من الوقت لتبنى لها أسـطولا • دعى هذه العاصفة تمر بهم كما تمر العاصفة بحقل من القمح فتميـل معها سنابله • ان الغزاة يقبلون ويمضون • ولا دوام الا للحق الأعلى • عدينى بألا تثيرين شقاء شعبى •

ـ أعدك بذلك يا أبتى •

ـ حسن • واننى لا أستطيع أن أطالبك بالخضـوع للفاتح المغتصـب • انك مدينة بالولاء لزوجك ولروما • ولتتصرفى بما يتطلبه منك واجبك وولاؤك • لن أستطيع أن أمدك بأية مساعدة من جانبى • ولكننى أستطيع أن أهديك بما يكون أشد نفعا لك من ذلك •• بعقل نادر الوجود • فسيكون خادمى وتابعى هيـلارى ، خادمك وتابعك من الآن فصاعدا • اننى أورثك ما لم يورثه ملك لخلفه من قبل • انه الاخلاص يابنيتى • فامنحيه ثقتك بقدر ما كنت تثقين بى •

ـ اطمئن يا والدى ، انى متبعة لمشورتك عـامة بها مقـدرة لهديتك •

ـ ان هيلارى هو الحـكمة التى تنقص الشباب • انه العقل المفكر المدبر-الذى لا يستطيع أن يكونه ضابطك الحارس • اتجهى شمالا ، ولكن لا تتجاوزى السور العظيم وهناك ستجدين الغابات• الغابات التى ستتلقى ابنة كويل بكل حنان وحدب !•

وجال بعينه فيما حوله من أشجار قائلا :

ـ أشجار الغابات بأخشابها هى التى ستحميك من أعدائك •، ان فى الخشب سر الحياة • ولعلك تذكرين يا ايلين يوم ولد هـذا الصبى ؟ لقد أمرتك بأن تضطجعى على المنضدة الخشبية فى غرفتك، أليس كذلك ، ومن هذا الخشب تغلبت على آلامك واجتزت أزمتك•: هناك صلة وثيقة بينك يا ابنتى وبين هذا الصبى • صـلة أقوى من صلة الدم ـ صلة أقوى من الأمومة ـ التى يشيد بها الشعراء على مر الزمن • لقد قدر لكما ـ أنت وهو ـ انكما ستهتديان الى شجرة الحياة معا ! •،

وراح صوته يخفت شيئا فشيئا ، حتى غلبه النعاس واستسلم

لنوم عميق • والتفتت هيلينا لترى ولدها هو الآخر قد حذا حذو جده من شدة ما ناله من تعب واجهاد • فتأملتهما بنظرات حانية رحيمة ، وجلست ساكنة حيث هي ، حتى لا تزعج الجد والحفيد • ن كل من حولها مجهد متعب ، بحاجة لمن يقف الى جانبه • فعليها اذن ألا تهن وألا تضعف •

ووصلت الى مسامعها أصوات الموسيقى التى أمر بها والدها اتية من بعيد بألحانها المتقطعة القصيرة . انها موسيقى والدها التى يحبها ويرتاح لسماعها • موسيقى والدها يرن صداها عبر الجزيرة التى يقتل رجالها وتحرق دورها وتعمها الفوضى والخراب • وبالرغم من ذلك كله ، يبعث الملك كويل فى طلب العازفين الموسقيين من رجاله ، دون أن تدرك لذلك سببا • لقد عرفت عنه دائما أنه رجل غريب الأطوار •

ولم تشعر من قبل بأنها بعيدة عن والدها بمثل ما كانت تشعر به فى هذه اللحظة • كلا ••• ليست هذه بساعةالحكمة والتروى • انها ساعة الجهاد والنضال • وأسفت على ما قيدت به نفسها من وعد له • انها لم تحضر لمقابلة والدها لتسمع منه للمرة الألف قصة الخشب الحى ••• وشجرة الحياة !

واستطاعت أن تتبين القادمين فى الظلام ، يتقدمهم هيلارى ، ومن بعده الموسقيون ، ثم العربة الصغيرة • وما ان أصبح القادمون على بعد خطوات منهم توقف الموسقيون عن العزف ، فى انتظار أوامر الملك • ولكن الملك لم يتحرك ولم يتنبه لحضورهم •

وتأمل هيلارى الشيخ النائم فى لهفة وقلق • ثم انحنى لسيدته وتأمل الصبى • وتقدم منه ، حيث حمله بين ذراعيه وأودعه العربة فى حنان الأم العطوف • ونهضت لتتبع ولدها الى العربة ، حيث حياها قائدها جاللو الهرم مبتسما • وبعد ذلك عاد هيلارى الى حيث يجلس الملك • وفجأة توقف عن متابعة سيره محدقا النظر فى وجه الملك جزعا ، وارتد سريعا لينادى سيدته •

كان الملك كويل جالسا على صخرته المحببة كما كان يجلس دائما ، وقد اكتسى وجهه بصفرة الموت • فأدركت أن والدها قد

فارق الحياة ، كما أدركت السر في استدعائه للموسيقيين وفي قوله لها عندما أقبلت عليه :

ــ لقد جئت في الوقت المناسب !!

وخيم السكون على المكان ، وران على الجميع صمت مطبق

وأصبحت هــــذه البقعة من الأرض وكأنها قطعة من الأبد .. ووقفت ، وطال بها وقوفها ، وقد شعرت بأنها اقتطعت نفسها عن الــكون بعيدا حيث لا حس ولا حياة .

ورفعت ذراعها آمرة الموسيقيين بعزف النشيد الملكي . وعزفت الموسيقى النشيد وردد الجميع معها كلماته . وما انتهى العزف والترديد ، حتى اقترب هيلارى من الصخرة ليحمل الملك كما حمل حفيده من قبل . لقد رفع بين يديه المستقبل والماضي : واحدا بعد آخر .

- ٦ -

صيد ثمين ، هذا ماقاله القائد تيرينتيوس لزميله كونستانتيوس وهو يرتدي ثيابه ويتأنق فيها . فسأله :

ــ ماذا تعني بقولك هذا ؟!

ــ اعني ما قلته وما فهمته أنت يا صديقي !

وبعد أن صرف كونستانتيوس تابعه ، قال لصديقه بجفاء ؟

ــ لا أعرف عم تتحدث . انني ذاهب لاستقبال رسمي .

ــ بناء على دعوة السيد ثيودورا . أليس كذلك ؟

ــ ان ماميرتينوس سيكون هناك . وقد يشهد الامبراطور هذا الحفل .

ــ ان ماكسيميان مشغول بضرائبه عن كل شيء آخر .

ــ حتى أنه لم يعد يجد فسحة من الوقت للحملة البريطانية . لقد انقضى عام دون اتخاذ أي اجراء في هذا الشأن .

ــ لقد بذلت أقصى ما فى وسعك .. ولو كنت مكانك لابتعدت عن ماميرتينوس .. لأننى أعتقد أنه لن يظل فى منصبه طويلا كقائد عام .. أن أيسر الطرق هى أقصرها .. عليك بسلوك السـبيل المباشر يا صديقى .

ــ وهذا ما أرجوه فعلا ، اذا ماأتيحت لى فرصة لقاء الامبراطور اليوم ..

ــ قليل من الصبر ، أيتها الآلهة ! عندما أقول الطريق المباشر لا أعنى بهذا الامبراطور .. اننى أعنى تيودورا .. هدية الآلهة اليك ! .

ــ أرجو الا تقحم الأميرة فى هـــذرك . لقد أسبغت على من عطفها الــكثير .

ــ وهذا هو بيت القصيد . فان لها تأثيرا كبيرا على والدها . واعتقد انه لا ينقصك من الذكاء ما تستطيع به أن تضع النقط فوق الحروف .. صيد ثمين ! .

وشغل عنه تيرنتيوس حتى لا يتيح له فرصة للكلام . ولم يجد كونستانتيوس بدا من مغادرة الغرفة دون أن يعقب بشىء . وخرج ليستقل العربة التى صرف قائدها ليقودها بنفســـه فى طرقات المدينة المزدحمة .

وفى الحديقة الفسيحة الأرجاء ، تناثر المدعوون جمـاعات ، يتبادلون الأحاديث والأقاويل والاشاعات ، كما هى العادة فى هذه المجتمعات دائما .

وكانت أكبر هذه الجماعات ، الجماعة المحيطة بالأميرة تيودورا التى ردت تحية كونستانتيوس عندما أقبل يحييها ، على غير ما ألفه منها ، من ود وترحاب . حقيقة انها ابتسمت له كعادتها ، ولـكنها تشاغلت عنه بالحديث مع فاتينيوس . فماذا جد بحق السماء ؟ ماذا ترى فى هذا الطاووس المتأنق ، الذى لا هم له الا أن يعنى بصقل شعره وارتداء فاخر الثياب الموشاة بالذهب والفضة . انه ضابط حرس وحاميات ، لم يكن له شرف القتال فى مقدمة الجيوش والنزال فى جبهات الصراع العنيف كغيره من كبار القواد المحنكين .

وشعر كونستانتيوس بالغضب يستبد به ويزداد ، كلما رأى

الأميرة مستغرقة في حديثها مع هذا الدعي المستظرف . ولما ضاق ذرعا بما يرى ، نهض عن المائدة التي كانت تجلس اليهـا الأميرة تيودورا بالشرفة ، وسار على مضض في الحديقة يستعرض الأمر محاولا ان يجد لمعاملة تيودورا الجديدة تعليلا من وشاية واش ؟ أو من عدم رغبتها في أن تختصه بعطفها أمام هـذا الجمع الملتف حول مائدتها . وشعر بأنه في حيرة من أمره لا يستقر له قرار .

وقابل احدى الخدم التي كانت تحمل قنينة من النبيذ وبعض الكئوس ، فافرغ لنفسه كأسا تجرعه دفعة واحدة وهو يقول

ـ الى الجحيم بحفلات الاستقبال العامة . الى الجحيم بالنساء جميعا . ترى ماذا أتى بي الى هذا الحفل ؟ أو لاحتساء النبيذ فقط ؟

اذن فليحتسي منه ما شاء . وأعاد الكرة وهو يمنى نفسه بحضور الامبراطور الى الحفل ، حتى يستطيع ان ينتهز الفرصة التي كان يترقبها على الأقل .

وبينما كان واقفا يتأمل أحد « الحواة » وهو يقوم بألعابه السحرية الآخذة بالألباب ، شعر بلمسة رقيقة على ذراعه ، فتلفت ليرى ليفونيا ، احدى وصيفات الأميرة ، وسمعها تقول له هامسة :

ـ بعد الغروب بساعة ، عند باب الحديقة الصغرى .

وأسرعت بالاختفاء بين جمهور النظارة خشية أن يراها أحد وهي تتحدث اليه .

ان ليفونيا فتاة بارعة الحسن ؟ ولكنه لن يستجيب اليها .. أن لديه من المهام ما لا يسمح له بأن يقضي أوقاته مع الحسان .. كلا . ان خير ما يفعله في تلك اللحظة أن يستقل عربته وينطلق بها . ان أحدا ما لن يكتشف غيابه .. ان أحدا ما لا يهتم بوجوده .

***

وعندما كان يتناول طعام افطاره في اليوم التالي ، أثقل عليه فيرينتيوس بأسئلته . كان يريد أن يعرف كل شيء ويلم بجميع التفاصيل . قال له كونستانتيوس ليرضي فضوله :

ـ لم يكن الحفل بالصورة التى تتخيلها . ولم يتحقق لى فيه شيء من أمانى . فماميرينوس كان يتهرب منى ويتحاشى الانفراد بى . والأميرة كانت مولية كل اهتمامها للطاووس الذهبى فابتنيوس والامبراطور لم يشرف الحفل كما تنبأت أنت بهذا .. وقضيت وقتى أحتسى كميات كبيرة من النبيذ حتى ضقت ذرعا بكل شيء وأخيرا قررت أن أقفل راجعا قبل الغروب تاركا الحفل ومن فيه. وبعد أن استبدلت ثيابى وتناولت عشائى ، قرأت قليلا ثم أويت الى فراشى !.

ـ أسخف تقرير عرض على . ألم تخف شيئا عنى ؟

ـ كلا . هذا كل ماكان فعلا . اللهم الا من أشياء اخرى ليست بذات أهمية ، «كالحاوى» الذى يستعرض ألعابه السحرية وكتلك الفتاة الجميلة التى طلبت منى أن أقابلها بعد الغروب بساعة .

ـ ولماذا لم تذهب الى الموعد الذى حددته لك ؟

ـ كنت منحرف المزاج . ثم انك تعلم اننى رجل متزوج .

ـ ومن عساها تكون تلك المعجبة ؟

ـ انك شديد الفضول .

ـ هل لك فى أن تعيد على مسامعى ما قالته لك ؟

ـ لقد لمست ذراعى برفق بينما كنت اشاهد الألعاب السحرية وقالت لى بعد الغروب بساعة ، عند باب الحديقة الصغرى .. ثم اختفت بين الجموع .

ـ وهل كانت هذه السيدة من وصيفات الشرف ؟

ـ أجل . وهل فى ذلك من ضير ؟

ـ يا الهى . ما أشد بلاهتك ! يا لك من غر أحمق !.

ـ ماذا دهاك ؟

ـ دهانى أنا أيها الغافل ؟ الم يتبادر الى ذهنك أن هذه الفتاة لم تكن بأكثر من رسول اليك ؟

ـ ما .. ماذا تقول ؟

ـ ان وصيفات الشرف لا يجرءون على شيء من هذا القبيل لحسابهن الخاص . لقد بلغتك هذه الوصيفة رسالة سيدتها الأميرة

اليك ، وانت لم تستطع بعقلك الذى علاه الصدا ان تدرك ذلك ؟ فاسرعت بالانصراف وقفلت راجعـــا لتقرأ وتنام . لعلك نعمت بقراءة طيبة ! .

ــ ولكنها كانت منصرفة عنى طوال الحفل . كانت موجهة كل اهتمامها الى فاتينيوس ولم توجه الى كلمة واحدة .

ــ وهذا بالذات ما يؤكد لى أن الرسالة كانت منهـا . انهـا تعمدت ذلك لتصرف الأنظار عن حقيقة اتجاهها . يا لضيعة قائد الحملة الى بريطانيا .

ــ ليس هذا من مستلزمات القيادة بحال ما .

ــ انك جعلت منها بتصرفك هذا عدوا لك . لقد واتتك الفرصة على صحاف من فضة ، ولكنك أعرضت عنها ، فضاعت منك قيادة الحملة الى بريطانيا .

ومن ذا الذى سيحتل مكانى ؟ انهم لن يوفقوا الى القـــائد الكفء الذى ...

ــ لن اجيب بشىء الآن . سأترك الرد للأحداث نفسها .

وكان تيرينتيوس محنقا مغيظا .

وتولت الأيام فعــلا مأمورية الرد على ســؤال كونستانتيوس لصديقه ، حين صدرت الأوامر بتعيين ماركوس فاتينيوس قائدا للحملة البريطانية . وادرك كونستانتيوس ان صديقه كان على حق . لم تكن الـكفاءة كل شيء . هناك أشياء أخرى تقرر مصير الأفراد والدول .

والى المنضدة الكبيرة الموجودة فى غرفته ، جلس القائد المنسى يتأمل الخريطة التى كان يعدها لقهر كاروسيوس الغاصب المتمرد . جلس يتأملها وقد استغرق فى تفكير عميق مضن .. أو بعد كل هذا الانتظار الطويل ، وبعد كل تلك الجهود المتواصلة ، ينتهى الأمر على هذه الصورة ؟

هــكذا قضت نزوة امرأة على كل آماله وآمال الامبراطورية أيضا .. وهكذا تتقرر مصائر الامبراطوريات الـكبرى . هــل سيكتشف التاريخ ذلك فى يوم ما ؟

- ٧ -

ـ تبينوا خطواتكم جيـــدا . ان الصخور ملساء شـديدة الانزلاق ! .

بهذا حذر هيلارى المتبعين خطاه .

ـ هل أنت بخير يا قسطنطين ؟

ـ اجل يا أماه .. كل شئ على ما يرام .

وسرفافونيوس من روح الصبى العالية . وكانا يعاونان معـا القائد كوريو على هبوط المنحدر الصخرى .

كان البحر يهدر من تحتهم ، والقمر يطل عليهم بوجهه الشاحب من خلال السحب ، فيعينهم على تلمس مواضع أقدامهم .

ـ هل تستطيع أن ترى القارب يا قسطنطين ؟

ـ كلا يا أماه .

ـ اين المشعل ؟

ـ معى يا اماه .

واوقد الصبى المشعل ورفعه الى أعلى وبعد أن تقدموا قليلا صاح قائلا :

ـ اننى استطيع أن أرى القارب الآن .

وهنا انبرى القائد كوريو قائلا :

ـ لدى كلمة تتردد على لسانى،أريد ان أريح ضميرى باطلاقها من بين جوانحى التى تحتبس فيها .

ـ لقد قمت يا سيدتى بالمعجزات . اننى لم أصادف فى حياتى امرأة من طرازك . لقد جئت الى بمحتمية بى ، فاذا بالوضع ينقلب وأحتمى أنا بك . ولولا رجالك ولولا هيلارى لما اهتديت لمثل هذا القارب تمكنت من الاقلاع الى روما .

ـ سافر فى رعاية الله . ولا تنسى أن تشرح للامبراطور كل

شيء . انك غير مسئول عن فشل الحملة . ان المسئول هو فايتنيوس بسوء تقديره وقلة تجاربه . قل للامبراطور انه لن يسترد بريطانيا الا بواسطة قائد محنك يعرف كل شيء عن هذه البلاد . قل له ان كونستانتيوس هو هذا القائد الذى هو بحاجة اليه فى مهمة مثل هذه . قل له انه كلما عجل بهذا الأمر ، كلما كان فى ذلك الخير كل الخير لروما . لقد بذلنا أقصى ما فى وسعنا ولكن الحملة الأساسية فشلت ولم توفق فيما أتت من أجله .

وحاول كل من هيلارى وفافونيوس تثبيت القارب الى الصخرة التى كانوا يقفون عليها . وكان بالقارب ستة من البحارة ، الذين أعانوا القائد كوريو على الهبوط اليه . وما ان استقر به حتى رفع يده محييا وهو يقول :

ـ رعتك الآلهة يا سيدتى .

ـ فى حفظ الله . يمكنك الاعتماد على هؤلاء الرجال . لقد عنى هيلارى بارشادهم وأحاطهم علما بما يجب أن يقوموا به . انهم حقا من المهربين ، ولكنهم سيبذلون أقصى ما فى وسعهم ، حتى تتمكن من الرسو بالقارب على شاطىء فرنسا . لا تنس أن تبلغ زوجى حبى وتحياتى !.

ـ وداعا يا قسطنطين . سأخبر والدك بكل ما كان منك ، وسأطمئنه أنه سيجد فيك خير رجل عند عودته . وداعا سيدتى . وداعا هيلارى . وداعا فافونيوس .

وانطلق به القارب مبحرا ، ووقفت الجماعة الصغيرة على الصخرة ترقب القارب حتى اختفى عن أنظارها . ثم شرعوا يتسلقون الصخور فى طريق العودة . فافونيوس فى المقدمة ، ومن بعده قسطنطين ، ومن بعدهما هيلينا ، ثم هيلارى فى المؤخرة . ولم يلقوا فى صعودهم ما لاقوا من عناء فى هبوطهم . وما هى الا ربع الساعة حتى كانوا قد بلغوا قمة المنحدر حيث كان ينتظرهم روفوس بالجياد التى أقبلوا بها .

ـ هل من جديد يا روفوس ؟

ـ كل شيء هادىء يا فافونيوس .

واعتلوا ظهور جيادهم التى انطلقوا بها الى الضيعة المنعزلة بعد مسير ساعة على ظهور الجياد · وعندها قابلهم رجل كهل يرتدى حلة زرقاء انضم اليهم ممتطيا صهوة الجواد الذى كان يمتطيه كوريو عندما ذهبوا به الى الشاطىء · واستأنفت الجماعة سيرها فى صمت وسكون · كانوا ستة أشخاص فى ذهابهم ، وهم ستة فى عودتهم · ان لكاروسيوس عيونا كثيرة تتطلب من المرء المزيد من الاحتياط ·

وبعد أسبوعين عادوا الى البيت الصغير القائم عند مشارف مدينة فيرلوم ، حيث كانت تقيم « الأرملة زينيا » وولدها · ولم يكن أحد ليعرف عنها الكثير ·· فيما عدا أنها قد قدمت من مكان ما بالأصقاع الشمالية ، وبرفقتها ابنها الوحيد ، وهيلارى ، ورجل قوى البنية يدعى ماركوس (فافونيوس) ، وروفوس ، وبعض الخدم ·

وكانت الأرملة زينيا تحيا حياة هادئة منعزلة · حيث كانت تقضى أوقاتها فى العناية بحديقتها وبجيادها التى كانت مغرمة بها · وكان يعاونها فى ذلك البستانى ماركوس ·

وكان من المستغرب أن تعمد السيدة الجميلة المحترمة الى تغيير هيئة صغار الخدم فى فيلتها الأنيقة من وقت الى آخر · الأمر الذى حدا برئيس البوليس فى فيرلوم أن يتحرى الأمر كله · وقد تبين له من تحرياته أن هذه السيدة من أصل عريق ، وأنها تدفع المستحق عليها من ضرائب بانتظام ، وأنها تعطف على الفقراء · كما أنها لا تحتفظ الا بخادمتين متقدمتين فى السن بصفة دائمة · أما الأخريات فلم تكن تحب الاحتفاظ بهن بالمنزل كثيرا ··· وهو تصرف سليم عندما يكون بالمنزل ابن فى السابعة عشرة من عمره ·

وتناقل القوم فى الناحية ، أن هذا الابن الشاب كثيرا ما كان يرى فى صحبة مينرفينا الصغيرة ، التى كانت تقيم مع والديها فى الفيللا المجاورة لهم · ولم يكن ذلك بأكثر من تلك الأقاويل التافهة التى يحب القوم أن يتلهوا بها · فقد كانت هذه الفتاة

صبية لم تتجاوز بعد الخامسة عشرة من عمرها • جميلة رقيقة ذات عينين سوداوين كبيرتين •

قال هيلارى لسيدته مختتما حديثه معها :

ــ لا داعى للقلق فى الوقت الحاضر على الأقل • لقد التقيت برئيس البوليس ، روتيلو ، وتبادلت معه حديثا طويلا • وهو لا يستطيع أن يخفى ما يجول بخاطره • ولم أتبين من حديثى معه أنه يشك فى أمرنا • لقد قضى كل من ثراكس وبولدس نحبهما دون أن يتفوها بشىء • ان شبكتنا لم تزل سليمة محكمة لم يعتورها خلل • أما الى متى ستظل كذلك ، فهذا هو السؤال ؟•

فرفعت الأرملة زينيا ذقنها الى أعلى فى اصرار وكبرياء ابنة الملك كويل قائلة فى نبرات قوية لا تعرف الوهن :

ــ ان الأمر سيظل على هذه الحال حتى يقبل زوجى • وانه ليسرنى أننى لم أصدر الأمر بالهجوم قبل الأوان •• والفضل فى ذلك يرجع لك يا هيلارى ، وليس لى !•

ــ لقد عارضتيننى فى ذلك أول الأمر ، حتى تأكدت من أن كونستانتيوس لم يكن قائد الحملة • ولقد كان من حسن حظنا أننا تداركنا الأمر قبل فوات الأوان • ولسوء حظنا أيضا اتضح أن كاروسيوس ليس بالرجل الذى يستهان به • انه يثبت لأقدامه فى هذه البلاد ، بعد أن قضى على الأسطول الامبراطور ، وعاونته فى ذلك العواصف والأنواء • انه يثبت لأقدامه ويوطد لحكمه بالمحبة والخوف معا • ويمكنك أن تتبينى هذا من نتائج حكمه فى هذه السنوات القلائل • لا- • لا تعبسى فى وجهى يا سيدتى •. اننى أعرف أنه مغتصب يجب أن نقاومه وأن نقاتله ــ ولكن من الخير لنا ألا نقلل من شأنه ــ فاننا ان فعلنا هذا أسأنا الى أنفسنا بالاستهانة بقدره • يجب علينا أن نعرف عدونا على حقيقته ، حتى نعد له من جهودنا ما يتكافأ مع قدره !•

فابتسمت راضية قريرة العين بما سمعته منه أخيرا قائلة :

ــ انك دائما على حق يا هيلارى • انك هدية والدى حقا •! والدى الذى أدرك عند وفاته ما أحتاج اليه فعلا •.

ـ وهذا شأننا جميعا ، أو شأن من ترضى عنهم الآلهة •

وخاضا في حـــديث طويل عن امكانياتهم ، وعن احتمالات المستقبل • وقـــدرا أن كوريو لا بد أن يكون في روما في تلك اللحظة التي يتحدثان فيها عما يمكن أن يقوما به بتنظيمهمـــا القليل العـــدد عندما يجد الجد • وأشـــار هيلارى الى جماعة المسيحيين التي انضمت اليهم • فقالت له هيلينا أو الأرملة زينيا (الاسم التي اختارته لنفسها متخفية ، مؤثرة اياه على غيره من أسماء ، لأنه تصغير لاسم زينوبيا) :

ـ انني لا أرجو منهم الكثير في القتال • ان معظمهم من النساء والأرقاء والمستضعفين •

فزم هيلارى شفتيه متأملا ما بين قدميه :

ـ لست واثقا من ذلك • لقد رأيت منهم عجبا ، وأحطت ببعض تاريخهم • انهم يضحون بأنفسهم في سبيل معتقـــداتهم • وهم يؤمنون بصاحب السلطان وبالقانون • كما أنهم لا يثورون ضد أولى الأمر منهم • فهم دائما في صفهم • وهذا هو السبب في أنهم في صف روما ضد كاروسنيوس ، الذى يعدونه مغتصبا متمردا !•

ـ لقد انضموا الينا في أشد أوقات حاجتنا اليهم •

بهذا أمنت هيلينا على قول هيلارى •

وأطرق هيلارى برأسه موافقا على ما قالتـه هيلينا • وراح يستعيد ما كان من جماعـة المسيحيين عندما كانوا يعيشون في غابات الأقاليم الشمالية • وذكر لها كيف كانت جماعتهم تمدهم بكل ما يحتاجون اليه من طعـــام وشراب وغير ذلك من مطالب الحياة الضرورية • لقد كان كل ذلك قبل أن يلتقى بألبانوس •• وعنده أن اللقاء بألبانوس يعتبر نقطة تحول في حياة المرء •

ـ ألم ترد اليك أية أنباء عن صديقك ألبانوس ؟•

فتأملها هيلارى في دهشة • ثم ابتسم قائلا :

ـ انني أنسى أحيانا أنك ابنة الملك كويل • لقد كنت أفكر فيه عندما سألتينني عنه •

وطرقت آذانهما وقع خطوات تقبل مسرعة فى اتجاه الغرفة التى يجلسان فيها . واندفع قسطنطين من باب الغرفة قائلا :

ـ أماه ، هيلارى ٠٠ أنباء مثيرة !!

فحدجته أمه بنظرة قاسية قائلة :

ـ مهما يكن من أمر هذه الأنباء ، فان ذلك لا يبرر اقتحامك الغرفة هكذا • لقد شببت عن الطوق ولم تعد طفلا •

انها لا تترك كبيرة ولا صغيرة الا بصرته بها •

ـ انني جد آسف على ما بدر مني • معذرة يا أماه •!

ـ والآن هات ما عندك !•

ـ ان كاروسيوس فى طريقة الى هذا الانحاء ، وسيمر بفيرلوم بعد ظهر الغد •

فلمعت عيناها ببريق خاطف ، ولكنها تمالكت نفسها قائلة :

ـ من ذا الذى أنبأك بذلك ؟•

ـ أولوس سكابولا • لقد سمع بذلك من المحافظ نفسه •! وهم يعدون العدة لاستقباله • وبودى لو ألقى نظرة عليه •!

ـ هل التقيت بمينرفينا ؟•

بذلك أرادت أن تحول دفة الحديث •

ـ أجل يا أماه •

ـ فلتضع نصب عينيك أنها من أسرة كريمة لها قدرها •! وأن لقاءك المتكرر لها قد يسيء اليها . وان من شأن هذا اللقاء أن يثير القيل والقال عنهم وعنا • ولعلك تذكر أننى لا أحب أن يتحدث الناس عنا كثيرا • لا ٠٠ لا أحب أن أسمع منك شيئا الآن ٠٠ فكر فيما قلته لك ثم حدثنى برأيك فيما بعد • والآن فلتنصرف وتتركنا لنتم ما كنا نتبادل الحديث فيه •

وتأملها هيلارى بعد انصراف ولدها • تأمل هذا الوجه الجاد الجميل • وتأمل هاتين العينين الساهمتين تعكس تفكير صاحبتهما فيما هو أجل وأخطر من علاقة ابنها الغرامية • انه يستطيع أن ينفذ الى أعماق ما يدور بخلدها فى هذه اللحظة بالذات ، بعد

ان سمعت نبأ قدوم كاروسيوس • وانه ليذكر ما قالته له من قبـــل ، عن أن حكم كاروسيوس يستمد قـــوته من شخصية كاروسيوس العظيمة ، وأنه لا يوجد فيمن حوله من هو جـدير بأن يحل محله •• ترى فيماذا تفكر ؟••

تقدمت الموكب ثلة من الفرســـان ، عددها أكثر من مائتين بثيابهم الزاهيـــة وحللهم المزركشة ودروعهم اللامعـة وخوذاتهم العالية • وكانت الطرقات مغطاة بالورود والرياحـين ، وشرفات المنازل تعج بجمهور الراغبين فى مشاهدة هذا الركب العظيم •

وفى أعقاب ثلة الفرسان مرت عربة من الطـراز الفرنسى ، يحيط بها خمسون فارسا من خيرة الفرسان • وبعد ذلك أقبلت ثلة أخرى من الفرسان لا يقل عددها عن الثلة التى ســـارت فى المقدمة ، وفى أعقابها عربة فرنسية أخرى •

ووقف الشاب فى فرجة الباب يحكم تسديد قوسه • وعندما أوشك أن يطلق سهمه ، شعر بيد غليظة توضع على كتفه وبالأخرى تمسك بالسهم ، وسمع صوتا مالوفا لديه يقول :

ـ لا جدوى من ذلك يا ولدى ، ليس هذا الرجل برجلك •

ـ فافونيوس !!

بذلك همس قسطنطين ثم استطرد قائلا :

ـ دعنى وشأنى ، لقد كدت أنال منه • لماذا فعلت ذلك ؟•

ـ اثبت يا ولدى • ألم يدر بخلدك أنك بعملك هذا ستعرضنا جميعا للسجن والتشريد ، بما فى ذلك والدتك ؟•

ـ كيف جرؤت على أن تتجسس على ؟•

ـ عندما أتبين أن قوسا من خير ما تحتويه مجموعة سلاحى قد نقص منها وعندما أشعر بأنك قد خرجت متسللا دون أن تخطر أحدا ، أتحرك لأجدك وأستعيد قوسى •• لقد جانبك التوفيـق وتنكبت طريق الصواب فيما كنت بسبيل ارتكابه من خطأ جسيم، لم يكن من شأنه ـ سواء تم أو لم يتم ـ الا أن يعـــود بالويل

والثبور علينا جميعا • ثم ان هذا الرجل الذى كنت تسدد اليه سهمك لم يكن كاروسيوس • انه كان الليكتوس !•

ـ وحتى لو صح ذلك • أولا يستحق الليكتوس القتل • أو نسيت ما فعله بنا منذ أربع سنوات ؟•

ـ لقد نال جزاءه منى • ولكنك كنت ستقدم نفسك لقمة سائغة لهذا الحشد من الجنود • اعترف معى بأنها كانت نزوة صبيانية !•

ومن نافذتها بالطابق الأول ، وقفت هيلينا تطل على الركب، ووقف هيلارى يتأملها ولا تتحرك عيناه عنها • انه يريد أن ينفذ الى أعماق نفسها •

ـ يا للطاغية الجبار ! ان له رأس ثور وعنق خنزير •• انى لأذكر قول والدى عنه •

ـ ترى ماذا كان يقول والدك عما يجول بخاطرك الآن ؟•

ـ ان راكب العربة الثانية هو الليكتوس •• اذن فقد نجا من الموت وشفى من جراحه •

ـ لقد صبح رجلا عظيمـــا • ويقول البعض عنه انه الرجل الثانى فى الدولة • ولكنه ليس له من الصفات التى تؤهله للعظمة والقيادة والشخصية الطاغية •

ـ اذن ، فلا يوجد بعد كاروسيوس من يشغل منصبه ؟•

ـ بودى لو أقلعت عما تفكرين فيه •

ـ أنك تحب المعارضة أحيانا ، أليس كذلك ؟•

ـ انه الجنون بعينه • ان ما تفكرين فيه هو القتل مهما كانت مبرراته وأسبابه •

فاستدارت اليه قائلة فى غضب محتدة :

ـ كيف تجرؤ ؟ ••

فركع هيلارى أمامها مستغفرا :

ـ سامحينى يا سيدتى • ان من واجبى أن أبصرك بالأمور •

ـ انهض • اننى أكره أن أرى امامى رجلا على ركبتيه • انهض ولا تلجأ الى اثارة غضبى ثانية •

ونهض الرجل متثاقلا وهو يقول:

ـ يحسن بنا عندما يستشكل علينا أمر من الأمور، أن نحاول تصور ما كان يمكن أن يقول فيه رجل نثق فى حكمته وسداد رأيه وانني الآن افكر في والدك، وفي البانوس .

ـ البانوس ؟ أو أصبح قدوة لك الى هـذا الحد ؟ ترى هل أصبحت مسيحيا ؟.

فتردد الرجل قليلا قبل ان يجيب:

ـ لست أدرى يا سيدتى . لأننى لم أتبين بعد حقيقة أمرى . ليس الأمر بهذه السهولة فهناك الكثير من المسائل التى لم افهمها بعد . ان الظروف لم تسمح بأن التقى بالبانوس كثيرا .

ـ ترى ماذا كان يقول والدى عن حالتك هذه ؟.

ـ وهذا هو نفس ما أردده بينى وبين نفسى . لطالما تساءلت غير مرة عن ذلك . بل وانه ليحزننى أن الاقدار لم تسمح بأن يتم اللقاء بين الملك كويل والبانوس هذا .

ـ لا جدوى من مثل هذا الحديث . دعنا منه الى ما يجب أن نفكر فيه . فى قضيتنا التى يجب أن نكرس لها حياتنا وكل تفكيرنا فى روما . فى كاروسيوس الذى سيقضى بضعة أيام فى قصر المحافظ . فى الأرملة زينيا التى يمكن أن تحصل على اذن بمقابلته .

ورفع هيلارى سبابته الى شفتيه محذرا ؛ بعد أن سمع وقع اقدام مقبلة فى الردهة . وبعد قليل استأذن احد الخدم فى الدخول ولما أذن له أخطر سيدته برغبة فافونيوس فى مقابلتها . فقالت له :

ـ دعه يدخل .

وما ان وقع نظرها على وجهه الممتقع ، حتى اتسعت حدقتاها دهشة وترقبا . وتريث فافونيوس حتى ابتعد الخادم ثم قال بصوت أجش :

ـ لقد شاهدت جماعة من الفرسان يمرون بمنزلنا . كلا . كلا انهم ليسوا من القوات المرافقة لكاروسيوس . وتبينت بينهم ثلاثة

من الضباط الرومان فى حللهم الرسمية . ولقد تعقبتهم »
ــ ضباط من الرومان .
ــ أجل يا سيدتى . قائد وضابطان . أما الآخرون فكانوا من رجال حاشية كاروسيوس وحرسه الخاص .
ــ حاشية كاروسيوس ؟ كأنى به قد صار ملكا .

ــ أخشى أن تكون هذه هى الحقيقة .. لقد تبعتهم حتى لحقت بهم وسألتهم عما أتى بهم الى هذه الناحية . فتنازل أحدهم بالرد على قائلا :

ــ أفسح الطريق أيها الخنزير . ان هؤلاء الأسياد قد حضروا موفدين من قبل روما للاعتراف بقائدنا كامبراطور لبريطانيا .
ــ هذا غير صحيح . لا يمكن أن أصدق شيئا من هذا القبيل.
ــ وأنا أيضا لم أصدق ذلك . ولكننى عندما رفعت عينى الى القائد الرومانى مستفسرا ، أومأ الرجل موافقا ..
ــ روما ، روما .. يا لضياعها .

ــ وتعمد النبيل أن يرفع صــوته وهو يحدثنى بذلك ، حتى يسمعه كل الناس . لقد انتشر الخبر فى جميع أنحاء المدينة .
ــ كاروسيوس امبراطور بريطانيــا ؟ وباقرار من روما . لابد وأن زوجى قد قضى نحبه .

وبالرغم مما جاهدت به هيلينا لتخفى آلامها وتتمالك نفسها ، الا أن كل كلمة نطقت بها ، وكل خالجة من خلجات وجهها ، كانت تنطق بالألم الدفين الذى تعتمل به نفسها ».

الجزء الثالث : ٢٩٤ - ٢٩٦ بعد الميلاد

— ١ —

كانت بريطانيا كلها ، فى شغل بالأعداد للاحتفال بالعيد السابع لحكم كاروسيوس . نعم ، العيد السابع لحكم كان كاروسيوس فى ثلاثة أعوام منه امبراطورا لبريطانيا .

وكان المكان الوحيد الذى بدا انه لايشترك مع القوم فيما يعدون له ، هو قصر الأمبراطور فى لندن . وكان كل من فى المدينة يعلم ان هذا الصف الطويل من النوافذ بالطابق الأعلى ، هو جناح الامبراطور الذى اختاره ليباشر فيه مهام منصبه ، مواصلا الليل بالنهار ؛ دون كلل أو ملل .

ولم يكن من غير المألوف أن يعقد وزير الخزانة اجتماعا قبل منتصف الليل بساعة . كما لم يكن من غير المألوف أن يصطحب الرجل معه رؤساء المصالح المختلفة وكبار موظفى وزارته . لقد كان هذا من الأمور العادية فى بلاد كاروسيوس .

وما ان وقع نظر نيوديمار : حارس الامبراطور الخاص عليهم حتى قال متمتما فى صوت غير مسموع :

ــ عصابة مصاصى الدماء .

ودخل الأمين الخاص تيودفيك غرفة مكتب الامبراطور ليعلن قدوم الوزير وأتباعه . ثم عاد بعد قليل ليطلب الى الوزير الدخول بمفرده . وبعد أن دخل هذا الى مكتب الأمبراطور ، همس الأمين فى اذن الحارس الخاص قائلا :

ــ ما كنت أحب أن أحل محل الليكتوس فى هذه الليلة . ان أعصاب الامبراطور متوترة ؛ منذ أن قدم هذا الرسول بتلك الرسالة التى سلمها اليه شخصيا .

ــ الا تعرف شيئا عن هذه الرسالة . اظن أنها كانت تنقل أنباء سيئة وتنذر بالمتاعب .

وكان الليكتوس فى الوقت نفسه ، قد تقدم من المنضدة التى يجلس اليها الامبراطور ، وأدى له التحية الواجبة . غير ان

كاروسيوس لم يعره أى التفات ، ولم يرفع عينيه عن الرسالة التى كانت بيده .

وظل الليكتوس واقفا فى مكانه لا يتحرك . وكان يتساءل عن هذه الرسالة التى تبدو قصيرة فى حجمها ، والتى استغرقت من الأمبراطور كل هذا الوقت فى قراءتها . أم لعله يتعمد ذلك امعانا منه فى الضغط على أعصاب الليكتوس . ترى ماهو مدى ما اكتشفه من معلومات عنه وما اطلع عليه من حقائق .

ان ذلك لم يعد يعنيه فى كثير أو فى قليل . لقد أعد عدته ورتب أمره ، وأحكم وضع خططه . وأخيرا ، رفع كاروسيوس رأسه اليه قائلا :

ــ ساوجز لك القول . فلدى الكثير من المهام التى لا تسمح لى بالاطالة معك . لقد رفعت الى الكثير من الشكاوى . ولقد تجاوزت عنها لأنها ضد رجل أحبه واثق فيه . ولكننى لا أستطيع أن أمضى فى هذا الى النهاية . فقمت بتقصى الأمر بنفسى .

ــ عرفت ذلك يا مولاى .

ــ هكذا ؟ اذن فهذا ييسر الامور . لقد تجاوزت فى جمع الضرائب الحدود المرسومة لك بمراحل . ولن أسألك عن مصير هذه الأموال لأننى أعرف فى أى باب أنفقت .

ــ فى أى باب يا مولاى ؟ .

ــ فى اعداد جيش خاص بك قوامه خمسة آلاف مقاتل . ان هذا الجيش سيسرح فورا وينزع عنه سلاحه ويقصى عن بريطانيا فى مدى أسبوع على الأكثر .

ــ وهل انت واثق من امكان تنفيذ ذلك ؟ .

وكانت ابتسامته الصفراء اكثر من أن يحتملها الأمبراطور الذى نهض عن مقعده قائلا :

ــ كنت أعرف عنك التهور والحمق ، ولكننى لم أكن أتصور بحال ما أن حمقك يدفعك الى هذا الحد من الوقاحة . لقد أردت أن أجنبك عواقب حمقك وتهورك ، ولكنك زدت الأمور تعقيدا فلم تتح لى ذلك .. ليوديمار ..

وكان الامبراطور مهتاجا منفعلا تتطاير عيناه شرراً وهو ينادى على حارسه العملاق « ليوديمار » .

وكان صوته وهو ينادى حارسه ، كزئير الأسد قوة واقتدارا.

ولكن حارس الامبراطور الخاص لم يجب النداء . وسمع الامبراطور فى الغرفة الملحقة بغرفة مكتبه جلبة وضوضاء. ولاحظ أن الليكتوس لم يزل يبتسم تلك الابتسامة الكريهة البغيضة .. وأدرك كاروسيوس منها كل شيء . وأسرعت يده الى المنضدة الصغيرة حيث وضع سيفه . ولكنه لم يجده، وشعر فى الوقت نفسه بألم حاد فى جنبه ، فاستدار ليتلقى الطعنة الثانية من الليكتوس . فترنح وسقط على مقعده الذى كان جالسا عليه من قبل . وسمع الليكتوس يقول له :

ـ من منا الأحمق ؟ لقد قمت بما كان عليك القيام به . القتال والعمل على استتباب الأمن والنظام فى البلاد . والآن جاء دورى . دور رجل السياسة والحكم .

وكانت الضجة فى الغرفة الأخرى قد سكنت تماما ، وأدرك الليكتوس أن المقاومة قد انتهت . وهل يمكن لليوديمار أن يقاوم خمسين من الرجال المسلحين المتزيين بزى المدنيين؟ لقد قتل الحارس الخاص ، وقتل الأمين الخاص ، وتم حصار القصر برجاله فى هذه اللحظة بالذات .

ووقف يتأمل الامبراطور وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ورآه بالرغم مما يجتازه من محنة ، يبتسم فى وجهه ساخرا مشفقا . ترى ماذا يحمل هذا الرجل المحتضر على الابتسام ؟ تلك الابتسامة التى تعنى على قدرها قهقهة عالية تهز أركان القصر بل المدينة بأسرها سخرية وتشفيا . وحاول الرجل المحتضر أن يتكلم ولكنه لم يستطع، حيث تفجرت الدماء من فمه وفاضت على الأوراق الموضوعة على المنضدة. وأخيرا استطاع الامبراطور أن ينطق بهذه الكلمة بكل صعوبة :

ـ أحمق !

ثم فاضت روحه .

وتنفس الليكتوس الصعداء . لقد تحقق له النصر . ولكنه عاد ليحدق فى الوجه الذى اكتسى بصفرة الموت ، وراعه أن الابتسامة



الساخرة المتهكمة لم تزل تعلو شفتيه الباهتتين . فاقترب من جثة الامبراطور فى حذر وكأنه لم يزل بعد على قيد الحياة . ووقع بصره على يد الأمبراطور التى لم تزل ممسكة بالرسالة التى كان متشاغلا بقراءتها عند دخوله . وكانت يد الميت قابضة على طرفها فى وضع يوحى بأنها اعدته له ليقراها ويطلع على ما فيها. وانحنى ليقرأ تلك الرسالة . وما ان فرغ من الاطلاع على ما بها ، حتى حاكى وجهه وجه الرجل الميت فى صفرته . ولم يستطع أن يكتم صرخة الذعر التى انطلقت من صدره .

وما أن سمع الموجودون خارج الغرفة تلك الصرخة، حتى اقتحموا الغرفة متدافعين . وما أن وقع نظرهم على الجثة الإمبراطورية فى مقعدها ذى المسندين فى صورة الأسد ، وعلى الليكتوس وقد استقرت عيناه على الرسالة التى راح يتلوها ويعيد تلاوتها ، حتى تسمرت أقدامهم حيث كانوا واتسعت حدقات أعينهم دهشة وهلعا .

انها كانت تحمل اعلان روما الحرب على بريطانيا .

- ٢ -

نهض ستون ضابطا من كبار القواد ، عندما دخل القيصر خباء القيادة - وبعد أن رد تحيتهم ، اتخذ مجلسه فى صدر المجلس المعقود لواؤه له . وكان حاملو الأعلام الأربعة ، الذين وقفوا فى الخارج ، يشهدون على أن روما فى هذه المرة ، لم تدخر وسعا فى حشد ما لديها من قوات لاعادة غزو بولونيا فى بلاد الغال .

وتداول مجلس الحرب المنعقد تحت رياسة القيصر ، فيما كان يعده من خطة محكمة لغزو بريطانيا .

وكان من المشاهد أن هذه الحملة ، فضلا عما زودت به من عدة وعتاد ، امتازت بأنها تستمد قوتها من محبة رجالها وتفانيهم فى خدمة شخص القيصر ، زوج أبنة امبراطورهم مكسيما نيوس ، ومن المامه بكل صغيرة وكبيرة عن بريطانيا وعن مناخها وطبيعة شواطئها . كما كان من السهل التأثير فى أهالى بولونيا بعد مقتل امبراطورهم

السابق كاروسيوس واعتلاء قاتله الليكتوس العرش . الليكتوس الذى لم يحظ بما كان يحظى به كاروسيوس من محبة واحترام .

وتمت فى هذا المجلس الأخير جميع الاستعدادات لغزو بريطانيا وقهر الليكتوس في عقر داره . ورسم القيصر خطته على أساس أن يبدأ الغزو عندما يحل الظلام ويتكاثف الضباب قائلا لقواده :

ـ ان خير هجوم هو الذى يكون فى ساعة لا يقدر العدو لها ذلك . عنصر المفاجأة والمباغتة هو خير سلاح فى يد الجيش الغازى . فلتترقبوا انتشار الضباب وتخطروننى بذلك حتى أصدر أمرى بالهجوم :

ثم توقف القيصر قليلا ، ووجه كلامه الى القائد اسكليبيوداتوس قائلا :

ـ يجب أن تشعل النار فى جميع السفن بعد نزول جميع القوات على الشاطىء . ويجب أن يعرف الجميع ذلك ، ضباطا وجنودا . اننا سنغزو شواطىء بريطانيا لنتوغل فى البلاد ونستقر بها . لا نكوص ولا عودة ولا تقهقر . هذه السفن يجب أن تحرق عن آخرها !.

وابتسم القيصر لما لاحظه على وجوه الحاضرين من امارات الدهشة والعجب . ونهض محييا فى طريقه الى الخارج ، حيث امتطى صهوة جواده يتبعه مساعدوه من الضباط الشبان الذين كانوا يشتعلون حماسا ، ويمثلون خيرة ما فى العالم كله من ثقافة عسكرية ودراية بفنون القتال.

وعندما توقف عند مقره الرسمى ، وسأل عن زوجته ، أخبره تابعه الخاص بأن الأميرة فى انتظار القيصر بغرفتها الخاصة .

وكان باديا من تحية مساعديه له وهو يدلف الى مقره بميدان القتال ، انهم يحبونه محبة ترتفع بهم الى حد التقديس . وكان فى ذلك ما يكفى لأن يدخل السرور على قلبه وترتاح له نفسه . ولكن وجهه كان يكتسى بمسحة من الحزن ، عندما كان يخطو صوب الغرفة التى تنتظره فيها تيودورا ، زوجته .

- ٤ -

كان البيت على حاله ، لم يتغير فيه شيء الا بقدر ما مرت به يد الزمن ، خلال تلك السنوات العشر الطوال .

أجل ، عشر سنوات . انها لا تستطيع أن تصدق هذا ... ان الأمر يبدو وكأن كل شيء كان بالأمس القريب .

وراحت هيلينا تتجول في ارجاء البيت من حجرة الى حجرة ، ومن ركن الى ركن ، تطوف بها ذكريات الماضي مع كل خطوة تخطوها .

هاهي ذي تعود الى عشها الذى اضطرتها الظروف لان تجلو عنه . ان كل ما فيه يحدثها عن الماضي وعن فترة سعيدة من حياتها . الماضي ؟... أى ماض هذا ؟ انه تلك الاعوام العشرة التى لم تكن غير حلم ثقيل مزعج . ان حياتها في هذا البيت متصلة . لقد رحل كونستانتيوس الى روما ، وهاهو ذا يعود منها . انها متصلة اتصال العمر نفسه .

ليس من شك في أن اقدامها على التعجيل بالحضور كان مجازفة في تلك المرحلة من القتال الذى بدأ لاعادة غزو بريطانيا . انها ما ان سمعت بأن الامبراطور الليكتوس يتجه غربا بكل ما لديه من قوات ليوجد ثغرة في خطط هجوم الرومان ، حتى بادرت الى العمل ، فأصدرت أمرها لقوات المقاومة في الشمال والشرق بأن تقوم بما هو مطلوب منها حسب مقتضيات الموقف . أما هي وقسطنطين وهيلارى وفافونيوس ورفوس ، وحوالي العشرين من الخدم والأرقاء ، فقد اتجهوا جنوبا . وبالرغم من أنها لا تعلم بصفة قاطعة بأن كونستانتيوس كان يقود هذه الحملة ، الا انها كانت واثقة في قرارة نفسها من انه هو قائدها ، ومادام هو قائدها فان اندحار الليكتوس أمر مفروغ منه .

ان كل ما كان يبلغها ما هو الا مجرد اشاعات يتناقلها الناس ،

لقد بلغها منذ اربعة أيام نبأ سقوط بولونيا فى أيدى القـــوات الرومانية . ثم بلغها عقب هذا مباشرة ، ان الرومان قد احتلوا غرب بريطانيا ، فى ليلة عاصفة كثيفة الضباب . وهذا ما تستبشر به خيرا ، وما يؤكد لديها ظنونها ... الضباب الذى كان واســطة تعرفها الى كونستانتيوس ... انها ما أن سمعت من فافونيوس ان الغزو قد تم بين أستار الضباب ، حتى تأكد لديها أن زوجهـا هو قائد هذه الحملة ، فلطالما حدثها عن امكانيات هذا الغزو وعن خير سبيل يمكن أن يسلكه القائد المحنك قائلا :

مادمت القائد المنوط به الدفاع عن بريطانيا ، فانه لزام على أن الم بخير السبل لغزوها ، حتى أحتاط للامر واتخــذ للامر عدته . وخير السبل لغزو هذه البلاد هو مهاجمة شواطئها عندما يتكاثف الضباب ويدلهم الظلام .

ووردت الأنباء بعد ظهر اليوم التالى ، عن نزول القـــوات الرومانية فى الجنوب . سمع بذلك فافونيوس من بعض اللاجئين ونقله الى سيدته ، التى ابتسمت راضية سعيدة ان هذا ما كانت تتوقعه فعلا ، وكانت منهمكة فى ترتيب منزلها واعادته لحالتـه الأولى من نظام ونظافة . فشد هذا النبأ من عزمها ، وواصــلت ما كانت تقوم به بنشاط وحيوية لتلقف أنباء النصر والفوز .

وارتدت ازهى ثيابها لونا ، وتحلت بأثمن حليهـــا ونفيس مجوهراتها . وتنقلت بين غرف منزلها ، وفى طرقات حديقتها ، سعيدة مستبشرة فى انتظار كونستانتيوس ... كونســتانتيوس الذى تركها بالأمس فقط وسيعود اليها فى غده ... كما تريد أن تقنع نفسها بهذا ... انه لم يطل به البعد عنها ... لم تكن أعواما وشهورا ... أن هى الا ساعات ودقائق .

***

وبدأت القوات الرومانية تمر بالطريق العام فى الساعة الثانية بعد الظهر . وكانت القوات خليطا من الفرسان ومن المشاه ومن التوابع وعربات العتاد . ووقف فافونيوس يتأملها فخـورا فرحا بها . وبعد انتهاء مرور الطابور الاول ، اقبلت ثلة من الفرســان

والمشاة يتقدمها ضابط من الفرسان ، ما ان أصبح أمام الفيللا حتى انحرف في اتجاهها . وخيل لفافونيوس أنه لا يجيد الركوب ، وان الجواد قد جمح بالضابط قسرا عنه . فقال له متندرا :

ــ لقد عرف عن فرسان الفيلق السابع والعشرين انهم لا يجيدون الركوب . ولعلك كرهت أن تشذ عنهم !.

فحدجه الضابط بنظرة قاسية ، بينما ازداد فافونيوس ابتساما وهو يقول له :

ــ أين كنتم . ولماذا تأخر قدومكم ؟!.

واشار الضابط للطابور آمرا بالتوقف عن مواصلة السير . ثم رمق فافونيوس بنظرة حادة وهو يسأله :

ــ من أى فيلق أنت ؟.

ــ من الفيلق العشرين بطبيعة الحال . الا تعرف أين أنت ؟.

فابتسم الضابط بدوره قائلا :

ــ من الفيلق الذى كان يتخذ كاروسيوس من رجاله طعاما لافطاره . لعلك كنت عسر الهضم فنجوت بجلدك !.

وارسل ضحكة عالية ثم أردف قائلا :

ــ هل تقيم هنا ؟.

ــ انه بيت القائد كونستانتيوس .

ــ أعرف ذلك . انه القيصر كونستانتيوس الآن .

ــ انك حملت لى أحسن الأنباء . بودى لو اعانقك وأقبلك .

ــ من حسن حظى انني مازلت ممتليا صهوة جوادى . لقد حضرنا لنحتل المنزل والاسراع باعداده !.

ــ باعداده لمن ؟ للقيصر ؟!.

ــ أجل . ان قدومه مترقب من ساعة لأخرى . بل قل من دقيقة لأخرى . انه سريع الحركة !.

ــ ان زوجة القيصر تقيم هنا أيضا .

ــ أعرف ذلك أيضا . ولكن كيف علمت بقدومها . ان هذا

هو لا يجب أن يعرفه أحد . فليكن ، افتح هذا الباب على مصراعيه حتى لا نضيع وقتا !.

ـ ماذا تعنى بقولك انها قادمة ؟ انها هنا فعلا !.

ولم يعره الضابط اهتماما ، ولم يكلف نفسه عناء الرد عليه، والتفت الى الطابور مصـــدرا أمره لرجاله بالتقـــدم . فأسرع فافونيوس بمساعدة اثنين من الخدم وفتح الباب الخارجى .

واندفع الجنود الى الداخل ، وسمع فافونيـوس فى الوقت نفســه وقع حوافر جواد يقبل مسرعا ، فالتفت ليرى هيـــلارى مقبلا وقد ارتسمت على وجهه ملامح الجزع ما لم يسبق أن رأى لها مثيلا .

واسرع هيلارى بالترجل عن ظهر جواده،واقبل على فافونيوس لاهثا . فبادره هذا متسائلا :

ـ ماذا بك يا رجل ؟ انك تبدو كشبح من الاشـــباح ! ماذا يحدث ؟!.

ـ كل شيء .. هل علمت بأمر هذه القــوات ؟ ان كوريو فى طريقه الى هنا . هاهو ذا قد لحق بى ، هل تعلم ؟!

ـ علمت بماذا ؟!.

وقبل أن يتمكن هيلارى من الاجابة ، كان القـــائد كوريو قد وصل على رأس ثلة من الفرسان . وما ان التقت عينـــاه بعينى هيلارى حتى حملق فى وجهه متسائلا ، فأسرع هذا يقول له :

ـ سيدى .. ان الاميرة هيلينا وولدها بالمنزل !.

واستبدت الحيرة بفافونيوس لما رآه من شحوب وجه القائد، وازدادت حيرته عندما سمع القائد كوريو يوجه لهيـــلارى نفس السؤال الذى سبق أن وجهه له هذا من قبل :

ـ هل تعلم ؟.

وأسرع القائد كوريو يتولى الاجابة على سؤاله قائلا :

ـ كلا ، انها لم تعلم بشيء وأنى لها أن تعلم ؟ لئن كانت قـــد علمت ، لما كانت هنا الآن .. هيلارى ، ترى ماذا نحن فاعلون ؟!

فأجابه هيلارى ؟

ـ نصارحها بالأمر . أن من حقها أن تعرف الحقيقة . ألست من رأيى يا سيدى ؟!.

ـ انهما فى طريقهما الى هنا . فى طريقهما معا الى هنـا .. هل أدركت حقيقة الموقف ؟!.

ـ يا الهى . يارب الأرباب ..

ـ انوصولهما لن يستغرق أكثرمن ربع الساعة. .لن أستطيع أن اقوم بهذه المهمة الثقيلة .

ـ اذن ، فسأقوم بها انا .

وترنح هيلارى من هول الموقف ، وكاد يسقط على الأرض لولا معاونة فافونيوس له . فشد القائد من قامته قائلا :

ـ بل انه من واجبى أن أخبرها أنا بذلك . تقدمنى اليها !.

ولم يستطع فونيوس أن يفهم شيئا مما يدور حوله . فدخل فى الحديث قائلا :

ـ بحق الالهة مجتمعة ، هلا صارحتنى يا هيلارى بحقيقــة ما أسمع وأرى ..

ـ ان الحقيقة بشعة مروعة . ان السيدة ، آه ، ها هى ذى مقبلة . تمالك نفسك وتحكم فى أعصابك وصل معى .

ووقفت هيلينا فى مدخل المنزل ، ولم يكن نظرها قد وقع على كوريو بعد ، ولا على هيلارى وفافونيوس . كانت تتأمل الجنـود وهم يفرغون حمولة العربات . ولاحظ الضابط الذى كان يشرف على قيام الجنود بعملهم ، وقوف السيدة بمدخل المنزل فحيـاها باحترام ، فردت له تحيته بايماءة من رأســـها ، دون أن ترفع عينيها عن الطنافس والآنية والمقاعد المحلاة بالعـــاج ، والملابس الموشاة بالذهب ، وصحاف الفضة والذهب ، التى يحملهاالجنود الى داخل المنزل .

ثم لاحظت أن الجنود قد وقفوا وقفة انتباه تحية لقائد عظيم. ولكن القادم لم يكن كونســــتانتيوس ، بل كان كوريو قادما فى اتجاهها وقد تأبط خوذته الذهبية .

واستقبلته مرحبة مبتسمة . وما أن اقتـرب منهـــا حتى لاحظت شحوب وجهه وتقطيب جبينه . ترى ماذا به ؟ هل هــو جريح ؟ هل هو مريض ؟ ماله يحماق فى وجهها هكذا ؟ لعلها هى المريضة لا هو ؟ لعلها هى الجريحة لاهو ؟وتأملت عينيهالحائرتين. انهما تشعان بنذير الخطر وما هو أشد هولا من الخطر . وسمعت دقات قلبها فى أذنيها . انها لحظة لقاء سعيدة لا تحتمل هـــذا التجهم . ترى ماذا جد من أمور ؟.

وانحنى الرجل امامها محييا ، ووقف بين يديهـــا كما يقف الكاهن أمام المذبح متعبدا . ولكنها ليست من الآلهة . متى تراها ضحية لم تدرك بعد حقيقة مانزل بها ؟.

ــ سيدتى ، اننى أحمل اليك أنباء خطيرة ــ هل تســـمحين بالدخول ؟.

ولكنها تقدمت منه قائلة فى هلع :

ــ هل هو زوجى ؟.

ــ إنه سليم معافى .

ــ هذا هو كل ما يعنينى . ان كل شيء عدا ذلك يهون .هات ما عندك !.

وبدا الرجل يقدم لما هو بسبيل الادلاء به . بدا يحدثهـــا عن روما وما طرا على الحياة فيها من تغييرات . وعن الامبـــراطورين المتقدمين فى السن ، ورغبتهما فى الاطمئنان الى من يخلفهما على العرش ويبدأ فى تحمل مسئولية الحكم فى حياتهما والاضـــطلاع بما يضطلعان به من مهام . وان تنفيذ هذه الرغبة قد استتبع تعيين جاليريوس قيصرا على الشرق،وكونستانتيوس قيصرا على الغرب.

ــ .. يالها من أنباء عظيمة . كونستانتيوس قد أصــــــبح قيصرا على الغرب .. أين هى الخطورة فى تلك الأنباء ؟.

واستطرد كوريو فى مقدمته وتمهيده موضحا أن الامبراطورين قد رأيا وجوب ارتباط القيصرين اللذين وقع عليهما اختبارهما، برباط يكون له طابع خاص يضمن ولاءهما . ارتباط أقوى من كل قسم او يمين . ارتباط القرابة والنسب . وبناء على ذلكاضطر

القيصر جاليريوس أن يسرح زوجته الأولى ليتزوج من ابنة الامبراطور دقلديانوس ، الأميرة فاليريا .

واومأت هيلينا برأسها تدعوه أن يسترسل ، وكأنها كانت تتوجس شرا مما ستسمعه بعد ذلك ، ـ ومما سيكشف عنه لها القائد كوريو ـ عما اضطر اليه القيصر الثانى ، قيصر الغرب، واكتسى وجهها بما نم عما تعتمل به نفسها . وأشفق عليها كوريو فراح يدور ويتردد ويتلعثم حتى قال فى كلمات متقطعة :

وقد اضطر القيصر كونستانتيوس أن يفعل ذلك هو الآخر ، وتزوج من تيودورا ابنة الامبراطور ماكسيميان . وهمافى طريقهما الى هنا !

فخطت هيلينا خطوة الى الخلف ، واضعة يدها على مكان القلب من صدرها . ووقف الجميع ، ضباطا وجنودا ، يحملقون فى وجهها الشاحب المكتسى بامارات الأسى . ان أحدا منهم لم يسمع ما كان يقوله لها كوريو ، ولكنهم أدركوا من الموقف أن ما ينقله القائد للسيدة جد خطير . ووقف فافونيوس وقد غلت الدماء فى عروقه تحدثه نفسه بقتل أى انسان يعترض طريقه ، وركع هيلارى يصلى ويبتهل . ولم يتمالك فافونيوس نفسه ولم يتحمل الموقف فانصرف واختفى من المسرح . ووقف كوريوجامدا فى مكانه لا يتحرك . وأخيرا تمكنت هيلينا من استعادة رباطة جأشها وقالت بنبرات ثابتة واضحة :

ـ هيلارى ، الى بولدى . سنرحل فورا .

فسمعت ولدها يقول :

ـ انى هنا يا أماه .

ورآه كوريو يخطو فيصبح بجوار والدته . ترى هل سمع قسطنطين شيئا مما دار من حديث ؟ لابد وانه سمع كل شىء . فانحنى القائد أمام الشاب قائلا :

ـ قسطنطين . لقد أصبحت وحدك المسئول عن حماية والدتك !.

ـ أجل . اننى أعرف واجبى تماما .

وعاد فافونيوس ورفوس يقودآن خمسة من الجياد بينهما ، وتأملت هيلينا القادمين ، ثم رمقت كوريو بنظرة لم تغرب عن مخيلته طوال ما عاش من سنين بعد ذلك قائلة :

ـ أرأيت يا كوريو ؟ ان العالم لم يعدم الاخلاص بعد !.

ولم يستطع القائد الكهل أن يتمالك نفسه ، فانتحب باكيا ، واعتلى الخمسة ظهور جيادهم . وهنا صاح كوريو بصوت جهوري آمر :

ـ انتباه .. السلام الامبراطوري .. سلام سلاح ..

وأدى الجميع ، ضباطا وجنودا ، التحية العسكرية للسيدة الراحلة . وسمع كوريو أحد الضباط يعلق متسائلا :

ـ السلام الأمبراطوري ؟!.

ـ أجل يا أجريبا . وليس أقل من ذلك .

ووصل الى مسامع القوم من بعيد ، صوت المنادى يعلن قدوم القيصر العظيم .

***

ـ ٤ ـ

ـ ان صديقا لي يلتمس الاذن بالمقابلة يا سيدتي .

بذلك أعلن هيلاري قدوم صديقه لهيلينا .

وظلت السيدة المتشحة بالسواد ساكنة لا تتحرك ولا تجيب ؛ وقد استقرت عيناها على الأسطح القرميدية التي تواجهها ، وهي تطل من نافذة غرفتها . انها نفس الأسطح ، ونفس الشارع ، ونفس الحياة . صديق ؟ ترى من عساه يكون ؟ فسألته :

ـ ماذا يبغى من مقابلتي ؟!.

ـ ليتشرف برؤياك يا سيدتي !.

ـ ليست بي رغبة لمقابلة أحد . ترى من عساه يكون ؟.

ـ آلبانوس يا سيدتي .

ـ البانوس . . . يالك من أحمق ، دعه يدخل .

وفي الواقع انها كانت تعجب من أمر هــذا الرجل ومن مدى تأثيره على هيلاري . ووقع نظرها عليه وهو مقبل في الدهليــز صوب حجرتها بقوامه النحيل وشعره الأبيض وردائه البسيط . ثم دلف الى غرفتها محييا باحترام لها واعتداد بنفسه . فردت تحيته واومأت اليه بالجلوس .

ـ ها قد تقابلنا أخيرا يا البانوس .

ـ ان كل شيء يتم بناء على مشيئة الله .

ـ وهل انت على علم دائما بما يريده الله ؟.

ـ أجل يا سيدتي . انه لا يريد الا الخير . ان مشــيئته هي الخير .

ـ تأمل العالم وما هو عليه .

ـ يا مولاتي ، يجب أن تميز بين أمرين ، رغبة الله ، وارادةالله، أنه يرغب في الخير ، ولكنه لا يفرض ارادته دائما ، لانه منح الخلق نعمة الارادة وهو يحترم حقوق هذه المنحة للانسان ولن يسلبها منه . لقد منحه العقل المميز والله لا يســترد عطيته بتدخله في توجيه ارادة هذا العقل . انه يحب الخير ويرغب فيه،وبوسعه أن يفرض ارادته وينفذها،ومن هنا تتعطل وظيفة العقل البشرى الموجه للارادة ، ومن هنا تتعطل هذه المنحة الربانية ، والله لا يسترد ما منح !!.

ـ ومن يكون الهك هذا ؟. أهو اله اليهود ؟ ألا يدعى اليهــود بأنهم شعب الله المختار ؟ وهل يعقل أن يؤثر اله الجميع شعبا على آخر ؟ بئس ما يقول به اليهود . .

وراح البانوس يحدثها عن اليهود في ماضيهم الديني وكيف انقلبوا بعد ذلك قوما خاسرين . وماذا كان موقفهم من المســيح ابن العذراء الذى ورد ذكره في التوراة ، فحاربوه واضــطهدوه وناصبوه العداء ، امعانا منهم في الكفر بعد أن هجروا أصـــول

دينهم ، وأسسه القويمة . ثم راح يبسط لها بعد ذلك تعـاليم المسيح وما يدعو اليه من محبة وسلام . فقالت له :

ـ لقد سمعت عن هذا المسيح الذى صلب فى آخر الأمر .

ـ اجل يا سيدتى ، الرجل الذى صلب من أجلك ..

ـ من أجلى أنا ؟ لعلك تهذى يا ألبانوس !!.

ـ من اجلك ومن اجلى ومن اجل هيلارى ومن اجل ولدك .. من اجل البشر اجمعين .

ـ اية لعنة هذه ؟

ـ اللعنة التى نقاسى منها جميعا . لعنة تبرير الخطأ بقولنا « ألسنا من البشر ؟ لعنة افتراض الخطأ لبنى الانسان . الا أن هـذا الانسان كما تحدثنا عنه الاساطير ، قد مر بعصر ذهبى من ماضيه البعيد ، لم يكن يعرف فيه الا الخير والسلام . وفجـأة طرأ على العالم ما خرج بالبشرية من دائرة الخير هذه . وهذا الطـارىء يتمثل فى بدء معرفة الانسان لظاهرة التمرد والعصيان !».

ـ يالها من اسطورة شاعرية ..

ـ ان الأساطير هى أكثر القصص صدقا .

ـ ومن ذا الذى انبأك بهذا ؟ أهو هيلارى ؟!.

ـ هيلارى ؟ سيدتى ، انه لم يسبق لى التحدث الى هيلارى فى شىء من هذا القبيل !.

فتدخل هيلارى قائلا :

ـ انه لم يسمع شيئا عن والدك .

فتساءلت فيما بينها وبين نفسها عما يبغيـه هذا الرجل المسيحى بداهة من حديثه معها . وآثرت أن تحـدثه عن آلهتهم الوثنية . وكان الرجل يصغى اليها مبتسما أحيانا ، مومئا برأسه أحيانا اخرى ، حتى انتهت من حديثها ، فشرع يقـارعها الحجـة بالحجة ، فى هدوء وتمكن مما يقول ، محـاولا أن يأخذها ببعض ما قالت هى نفسها . واختتم حديثه الطويل قائلا :

ـ لقد منح الله الارادة الحرة للانسان ومنحه حرية الاختيار . ولكن الانسان أساء استعمال هذه الارادة وتلك المنحة وسـقط

فى لجة الشر السحيقة . ولطالما تجاوز الله عن ذلك وحاول أن يهدى الانسان الى الصراط المستقيم . ولكن الانسان كان عنيدا سادرا فى غيه ، حتى انتهى به الأمر أخيرا الى صلب هذا المبعوث الذى ضحى بدمه على مذبح عناد البشرية . هل سبق لك ان شاهدت رجلا مصلوبا ؟!

ـ كلا ... كلا ...

وغطت عينيها بيديها من بشاعة ما تصورته

ـ انه لمنظر بشع حقا . ما اظن هناك ما هو أشد بشاعة من ذلك . قطعتان متعارضتان من الخشب نصبتا ليموت عليهما الرجل الما . ويسفك عليهما دمه المقدس . دمه الذى سال على الخشب ليروى شجرة الحياة ...

فقفزت هيلينا من مقعدها قائلة :

ـ من عساك تكون ؟! من ذا الذى أنبأك بهذا ؟ بكل هذا ، أم لعلك تسخر منى ؟ لئن كان الأمر كذلك فالويل لك .

وبيده النحيلة الرقيقة أوقفها البان عما كانت مسترسلة فيه قائلا :

ـ اننى خادم من خدم الله المخلصين وتابع من أتباع المسيح . والمسيح هو المحبة والسلام . ان من هو مثلى لا يسخر من أحد ولا ينطق الا صدقا !.

ـ المحبة ... أو الحب ... لقد آمنت به فى يوم من الأيام كثيرات غيرى من النساء . ولقد انزاحت الغشاوة من فوق عينى ورأيت كل شىء بجلاء ووضوح . ان البشر لم يزالوا على حالهم الذى كانوا عليه . ولم تنظفهم دماء مسيحك من أدرانهم . ان مأساتهم تتكرر كل يوم على مسرح الحياة !.

واسترسلت تتخبط فى اقوالها متأثرة بظروفها الخاصة . وأدرك من حديثها حقيقة حالها وما تقاسيه من آلام وثورة نفسية . لقد أنكرها زوجها وجحد ابنه وألقى بهما فى خضم الحياة . انها لا تفهم رسالة المحبة هذه وصارحته بذلك فى وجهه قائلة :

ـ ان رسالتك هى ليست لى ، حيث لم يعد لى هدف فى هذه الحياة . لقد كنت أهدف للحب ، وللمجد !.

ـ بل ان رسالتى شرعت لمن هم على شاكلتك من البشر ، ولن ينفعك الا التشبث بأهدابها . انها لم تكن لتنفعك من قبل ، لانك لم تكونى قد استكملت نضجك . لقد كنت تعيشـين فى دنيا من الأوهام ، على أساس أن من حقك على الله ان يحقق لك ما تريدين بالصورة التى تبغينها . وهو السـعادة فى عرف البشر . أى أن يخضع الله حكمته لمشيئتك انت !.

ـ لست أدرى الى متى سأظل مصغية لهذا الرجل ، ولمـاذا أقف لأستمع اليه ؟!.

ـ لانك قد أصبحت اهلا لتواجهى بالأمر الواقع . لقد أقمت حياتك على اسس من الخيال ، وحجب قناع الأوهام الحقيقة عن عينيك . ولقد ضاع كل هذا وتبخر أمام حرارة الحقيقة المرة ، لقد كنت تحبين نفسك قبل أن تحبى غيرك . كنت تحبين المجد لنفسك . والآن ، وبعد أن ضاع كل ذلك من بين يديك ، سـيعود اليك الحب الصحيح وستسترجعين المجد الحق . ستنالين أكثر مما كنت تحلمين به . عيشى لغيرك لتعيشى غنية . تلك هى رسالة الله . رعاك الله !!.

وانصرف الرجل فى هدوء كما أقبل . والتفتت هيلينـا الى هيلارى وحاولت أن تتكلم . ولكنها ما أن تأملتـه حتى احتبست الكلمات فى فمها ولم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة . لقـد رأت على وجهه وحول وجهه مالم يمكن أن يوصف بالكلمات او يعبر عنه بلسان البشر .

ومرت الأيام سراعا فى البيت الصغير الذى عادت اليه الأرملة فينيا من رحلتها ، كما كان يتحدث بهذا أهالى فيرلوم . وكانوا قد عللوا غيابها بخشيتها من الغزو الرومانى فتوارت فى مكان ما .. وعادوا الى حديثهم عن ابن السيدة وابنة جيرانهم الصغيرة مينرفينا .

ـ لولا خطابك ، لما كنت قد استقبلتك يا كوريو .

ـ لقد قدرت ذلك فعلا يا سيدتى ، ولحسن حظى اننى كتبت

اليك فى آخر لحظة . اننى قادم اليك كصديق فحسب . لست رسولا موفدا أو مبعوثا خاصا . وهذا ما أردت أن أوضحه .

لقد كان كاذبا فيما قال .. وكانت هيلينا تعلم ذلك .. ولقد أدركت من بين سطور رسالته ، بل ومما كتبه فعلا ان لقدومه باعثا آخر غير مجرد زيارة صديق قديم يريد أن يطمئن على أحوال أصدقائه .

وبعد أن قدم أحد الخدم النبيذ للضيف ، بدأ هذا الحديث بشرح الموقف السياسى ، وعودة الحياة الطبيعية للبلاد . ثم تطرق من هذا الى الحديث عن القيصر قائلا :

ـ ان كونستانتيوس جد متعب،وكانت آثارالاجهاد بادية عليه عندما قابلته فى الأسبوع الماضى . ولقد سألنى ، بصفتى الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة ، أن أحضر لمقابلتك .

ثم استطرد فى حديثه عن أعباء الحكم وعن تنظيم الجيش و ...

ولكنها قاطعته قائلة :

ـ وقد أشفقت عليه مما هو فيه من حرج . كفانا حديثا عن بريطانيا ، فلم أعد أهتم بالأمور السياسية أو بالشئون العسكرية . ما هو نوع المهمة التى جئت لها ؟

ـ ان الأمر يتعلق بولدك !

ـ أرجو أن نتفاهم على الأسس قبل أن نخوض فى حديث آخر .. ان ابنى قد شب عن الطوق وبلغ سنا يستطيع فيه أن يختار لنفسه ما يشاء من حياة . ان شيئا واحدا أستطيع أن أؤكده لك . ان ابنى لن يقبل أية مجاملة من القيصر ؟!

ـ أعرف ذلك .. وكما قلت لك من قبل اننى قادم لحسابى الخاص.أو بمعنى أكثر وضوحا ان ما سأقوله لك هو رأيى الخاص كصديق لكم . حقيقة ان كونستانتيوس يعلم بمجيئى ويعلم بأننى قادم لأحدثك بشأن ولدك ومستقبله ، الا أنه لم يعين لى شيئا أو يكلفنى بحديث محدد .

ـ أى مستقبلٍ لقسطنطين ؟ . ان ولدى لا مستقبلٌ له .

ـ لا ، لا .. كيف تقولين هذا ؟ . لندع القيصر جانبا الآن .. فليس القيصر بالامبراطور ، وليست بريطانيا بالامبراطورية .. تلك هى حقيقة الأمر يا سيدتى .. فليلتحق ابنك بجيش الامبراطورية الشرقية . ان لى أصدقاء فى بلاط القيصر جاليريوس . وانا زعيم لك برعاية امره هناك ..ماذا ترين فى ذلك ؟

وأطبقت هيلينا عينيها حتى لا يرى الرجل الجالس قبالتها ما ينعكس فيهما من انفعالات . وراحت تقلب الأمر على كل وجوهه . ان تلك هى خطة كونستانتيوس بدون أدنى شك . ولكن لماذا يحرص على ابعاد ولده الى الشرق . أيريد أن يجعل منه رهينة هناك أو أسيرا ؟

ولكن لا .. انها لا يجب ان تخضع تفكيرها لأهواء نفسها .. كلا .. ان هذا هو المخرج الوحيد لقسطنطين . هناك مجال خدمته ومستقبله .. هذا صحيح .. الا أن هذا يعنى فى الوقت نفسه الوحدة لها .. انها تجرد شيئا فشيئا من كل ما يجعل للحياة معنى فى عينيها .. وأخيرا قالت للقائد :

ـ سنعرض عليه الأمر .. أليس كذلك ؟

وبعثت فى طلب ابنها الذى عاد بعد قليل بقوامه الفارع الطويل وشبابه الغض .

ـ هل ارسلت فى طلبى يا أماه ؟

ـ اجل .. لدينا ضيف يا قسطنطين .

فانحنى الشاب محييا وهو يقول :

ـ سبق لى أن تشرفت بالقائد كوريو .. لقد كانت لنا مغامرة معا .

وآثرت هيلينا ان تترك ناصية الحديث للقائد المحنك القديم . فأحاطت ابنها علما بما جاء الرجل من أجله وتركت الباقى لكوريو .

وتبادل الرجل الحديث مع قسطنطين ، واستشف من حديثه طموحه ، وتبين شروطه ، وأدرك أنه لن يرضى الا برتبة قيادية

بالجيش . ووعده بالكتابة الى أحد ضباط الجيش العظام فى الامبراطورية الشرقية . واختتم حديثه معه قائلا :

ـ اذن فسأكتب الى ليسينيوس غدا .. وأظن انه لا حاجة بك لانتظار الرد . وأرى ان ترحل الى بيزنطة فى الأسبوع القادم ، وتنتظر رد ليسينيوس هناك . وأنا مطمئن الى موافقته على ما سأطلبه منه .

وتردد قسطنطين قليلا قبل أن يجيب قائلا :

ـ سأسافر الى بيزنطة فى مدى أسبوع يا سيدى .

ـ عظيم .. عظيم .. سأنصرف الآن .. وسأقضى الليل فى فيرلوم ، ثم اعود ادراجى فى الصباح .

ثم نهض عن مقعده .

ـ هل لى أن أستفسر منك عما تعده للمستقبل ؟

بذلك سألته هيلينا قبل أن ينصرف .

ـ أعده للمستقبل ؟ لقد قاربت السبعين من عمرى يا سيدتى، وقضيت فى منصب القائد ثلاثين عاما . ان مشروعاتى فى المستقبل هى أن أقضى أيامى فى زراعة الخضراوات فى ضيعتى الصغيرة بجبال سابينا .

ـ ان وظيفة القائد للرجل الأمين ما هى الا وظيفة القمة بالنسبة اليه .

ولم يعقب القائد الأمين بشىء . وفضل أن يحييهما وينصرف، تاركا الأم وابنها وحيدين .

ـ انه موفد من طرفه ؛ أليس كذلك يا أماه ؟

ـ انه جندى ، وليس على الجندى الا الطاعة . ولقد أوشكت أن تصبح جنديا ، أليس كذلك يا ولدى ؟

ـ اجل ، ولكن .. لست من جنود ...

ـ كلا .. ستكون من جنود القيصر جاليريوس .

ـ أماه .. هناك أمر لا تعرفينه ، وقد آن الأوان لأطلعك عليه .

ـ ترى ماذا عساه أن يكون هذا الأمر يا قسطنطين ؟

ـ اننى لن أستطيع أن أرحل هكذا بكل بساطة .

ـ انه مستقبلك يا ولدى .. مستقبلك الذى يجب أن يوضع فوق كل اعتبار .

ولكنها تأملت وجهــه وأدركت ما ارتسم عليه ، ان الأمر غير مابدا لها فى أول الأمر . وسمعته يقول لها :

ـ اننى أفكر فى حياتى المستقبلة .. اننى أريد أن أصطحب معى مينرفينا كزوجة لى .. اننى احبها ، وأرجو ألا تضعى العراقيل فى سبيلنا وفى سبيل سعادتى .

ـ كلا .. اننى لن افعل شيئا من هذا القبيل .. لماذا لم تأت بها لتقابلنى ؟.

ـ هذا ما فعلته فعلا .. انها تنتظر بالخارج .. هل أدعوها ؟

ـ أجل .. هيا وأسرع ..

وعاد بها قسطنطين بعد قليل . فتاة رقيقة تخطر فى مشيتها ولا تخطو . رشيقة خفيفة الحركة . حتى تحيتها عندما انحنت كانت صورة فنية رائعة الحسن .

وتأملتها هيلينا قليلا .. ولم يعجبها منها جمالها أو أدبها بقدر ما أعجبها منها ايمانها بنفسها وثقتها بأنها خلقت لتسعد غيرها ، فتلقتها بين ذراعيها وضمتها الى صدرها فى حنان وتقدير .

الجزء الرابع : ٣٠٣ ـ ٣٠٦ بعد الميلاد

- ٢ -

ازدحمت القاعة الكبرى فى قصر الحاكم بالضباط والقواد ، وبجميع موظفى الدولة الكبار والأمناء ورؤساء المصالح . وكانت أعصاب هذا الجمع متوترة ، لأن أحدا منهم لم يكن يعرف شيئا عن السبب فى هذا الاجتماع ، وان كان باديا للجميع ان الأمر على جانب كبير من الأهمية ، لما تناقله البعض عن هذا الرسول الخاص الموفد من قبل الامبراطور ، والذى وصل فى صباح اليوم نفسه ، ولم يكن يعلم عن السر فى حضور هذا المبعوث الخاص - فيما عدا القيصر - الا سترابو السكرتير الخاص للقيصر. ولو لم يكن ما تناقله القوم عن هذا الرسول الامبراطورى ، لرجحوا أن الدعوة الى هذا الاجتماع كانت كسابقاتها ، لاعلان ميلاد الطفل السادس للقيصر ، الذى رزق بخمسة أطفال فى خلال الثمانى سنوات لزواجه من الأميرة تيودورا .. ولكن لا .. ان الأمر أجل من ذلك وأعظم خطرا.

وقد بدت دلائل ذلك ، على وجه القيصر عند دخوله القاعة ، ولم يكن فى معيته الا سكرتيره الخاص سترابو ، وفيليوس ، كبير الموثقين ورئيس الهيئة القضائية . اذن فالأمر يتعلق بقانون جديد ؟ ان كبير الموثقين لا يحضر مثل هذه الاجتماعات الا اذا كان هناك ما ينبىء عن سن قانون جديد !

واتخذ كونستانتيوس مجلسه على العرش المعد له ، وكان شاحب الوجه بادى الضيق والاجهاد . واتجه بكلامه للحاضرين - وكانوا وقوفا - قائلا :

- اخوانى .. لقد تلقيت اليوم رسالة هامة من جلالة الامبراطور دقلديانوس ، بناء على ما رفع الى جلالته من زميلى القيصر جاليريوس ، وسيحيطكم علما بها وبمحتوياتها فيليوس كبير الموثقين ».
وتلا كبير الموثقين على الحضور الرسالة الامبراطورية . وفهم الجميع منها ان الأمر خاص بجماعة المسيحيين وحركتهم فى

الشرق . وانتهت الرسالة بسلسلة من الأوامر والقوانين التى تقضى بأن يسلم رؤساؤهم الدينيون كل ما لديهم من كتب ومخطوطات . وعلى الهيئات المختصة أن تقوم باشعال النار فى جميع هذه المخطوطات والكتب علنا وفى حضور رجال الدين المسيحيين .. يضاف الى ذلك مصادرة جميع أملاك الكنيسة المسيحية وبيعها بالمزاد العلنى واضافة حصيلتها للخزانة الامبراطورية .. هذا مع تحريم جميع وظائف الدولة على المسيحيين وكل من ينتمى اليهم . وليس لأى مسيحى الحق فى أن يلجأ الى القضاء ، اللهم الا اذا كان متهما او مدعى عليه . كما يجب هدم جميع الكنائس من أساسها .

وبعد أن انتهى كبير الوثنيين من تلاوة الرسالة والقوانين المرفقة بها نهض القيصر قائلا :

ــ لقد استمعتم الى الرغبة الامبراطورية . وسيقوم مكتب الأمناء بتبليغ هذه الأوامر الى المختصين لاتخاذ اللازم نحو تنفيذها وسأبدأ بتنفيذ هذا الأمر فى بلاطى وفى المصالح المتصلة بالقصر . وانى لأعلم أن بعضكم من أنصار هذا الدين الجديد . ولقد قررت أن أمهل هؤلاء يومين ، يقررون فيهما العقيدة التى يختارونها لأنفسهم . وعليكم جميعا أن تعودوا للاجتماع هنا بعد باكر فى نفس هذا الميعاد .. اخوانى ، ان تقرير مصيركم موكول اليكم .

ثم القى بتحيته للحاضرين وانصرف .

وانفرط عقد الحاضرين . ولم يعلق أحدهم بشىء على ما سمع بالرغم مما اكتست به وجوههم من غم وقلق وأسى .

وعاد القيصر الى غرفة مكتبه ، وطلب عرض الملف السرى عليه، وأمضى برهة فى مراجعته .

ومرت الثمانى والأربعون ساعة ، وعادت الجمعية للانعقاد ، وأضيف الى القاعة مذبح اقيم فوقه تمثال نصفى للامبراطور .. وبعد أن نطق القيصر ببعض كلمات قليلة قام الى المذبح وأدى الطقوس الوثنية المتعارف عليها . وحذا كبير الوثنيين والسكرتير الخاص حذو القيصر . ثم قام الحرس الخاص بما قام به الأولون ،

وبعد أن استقر القيصر على عرشه ووقفت حوله حاشيته ، طلب من المسيحيين الذين وجدوا بين الحاضرين أن يتقدموا خطوة الى الأمام . وخيم على القاعة سكون مطبق ثقيل . وبعد برهة وجيزة تقدم عدد من الرجال الى الأمام ، واحدا بعد الآخر . وأمرهم القيصر أن ينتحوا جانبا . ولم يستطع احد أن يتبين من ملامح وجهه ما يعتمل فى نفسه . بل ولقد بدا وجهه جامدا جمود تمثال الامبراطور الرخامى المنصب فوق المذبح . وران الصمت على جميع الحاضرين ، انه فى الواقع اجتماع لم يسبق له مثيل .

وأمر القيصر سكرتيره بتدوين أسماء المنتحين جانبا بعد أن بلغ عددهم أكثر من الستين . وبعد أن حصر السكرتير أسماءهم ، قام بتسليم الكشف الى القيصر ، الذى قام بدوره بمراجعته على الكشف الآخر الذى بيده ، ثم قال :

ـ ثمانية عشر اسما غائبة من هذا الكشف .

وبدأ يتلو الأسماء المشار اليها .

ولاحظ كل من فيليوس وسترابو أنه أغفل تلاوة اسم واحد فقط . واتخذ المنادى عليهم الجدد ركنا آخر لهم ، وأصدر القيصر أمره بأن تبدأ الطقوس الدينية بالنسبة لسائر الحاضرين ، الذين يتعين عليهم أن يتقدموا من المذبح متعبدين . وجلس يراقب صفوفهم فى هدوء . وتصاعدت سحب الدخان وتكاثرت بازدياد الملقين بقرابينهم الى النار .

ولم يبق بعد ذلك غير الجماعتين المنادى على أسمائهم . وتقدم الضابط سارتو الى الأمام معلنا رغبتهم فى اعلان عدولهم عن دينهم الجديد ورغبتهم فى العودة الى حظيرة ديانتهم القديمة التى يمثلها شخص الامبراطور المقدس .

وأومأ القيصر برأسه موافقا ، سائلا الضابط أن يبدأ بذلك فعلا . وتقدم الضابط وتبعه الحاضرون من المسيحيين واحدا بعد آخر . وكان هؤلاء جميعا من الجماعة الثانية ، جماعة الثمانية عشر التى نودى عليهم .

أما الجماعة الأولى التى كانت قد تقدمت عند بدء الاجتماع من تلقاء نفسها ، فقد ظلت فى مكانها لا تتحرك ولا يتقدم منها أحد ، وراح القيصر يحدجهم بنظراته ، وأخيرا نادى على الضابط فلافيوس روتيلوس ، الذى تقدم خطوة عن جماعته قائلا للقيصر :

ـ سيدى ، لن أستطيع أن أقوم بشىء من هذا القبيل .. أنا مستعد أن أقتل فى سبيل الامبراطور ، لا أن أعبده !.

وتلاه ثان وثالث ورابع ، وكلهم رافض أن يكفر بدينه الجديد ولقد قال له أحدهم :

ـ لقد قيل : اعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !

ولم يعره كونستانتيوس التفاتا ، بل نادى الاسم التالى . وهكذا تكرر الرفض وتكرر الاعتذار .

وأثناء ذلك ، فتح باب القاعة ودخل منه القائد كوريو . وتعلقت أنظار الحاضرين به ، حتى تقدم من العرش وأدى التحية الواجبة، ثم استدار لينضم الى صفوف المسيحيين . وكان بادى العلة ، اذ كان الجميع يعرفون انه كان مريضا خلال الأسبوعين السابقين ملازما لفراشه .

وبعد فترة من السكون والرهبة ، نهض القيصر عن عرشه وحيا الحاضرين منصرفا . ولكنه سرعان ما توقف عند باب القاعة مستديرا الى الجمع المحتشد فى القاعة قائلا فى صوت قاطع :

ـ لقد كان هذا الاجتماع محكا لولاء رجال الامبراطور من عسكريين ومدنيين .

وتأسيسا على ما اتضح لنا فى هذا الاجتماع ، فليعلم كل من يحيطون بالضابط سارتو ، انهم مفصولون من وظائفهم .

ثم ولى الحاضرين ظهره مغادرا القاعة ، وساد بعد خروجه هرج ومرج وذعر وأسى . وطغت أصوات المخلصين وهم يهتفون بحياة الامبراطور وحياة القيصر .

وارسل القيصر فى طلب كوريو . وتوجه هذا لغرفة مكتبه

القيصر الذى استقبله مرحبا وصرف الحاضرين لينفرد به .. ثم دعاه للجلوس قائلا :

ـ ما كان يجب أن تغادر فراش المرض .

ثم قدم له كأسا من النبيذ مستطردا :

ـ اذا ما جن جنون الاباطرة ، فليس اقل من أن يحافظ القياصرة على اتزانهم .

ـ أو أفهم من ذلك انك لا تقر هذا القانون ؟.

ـ ليس فى ذلك من شك يا كوريو . الا أننى مضطر الى تنفيذه . وسأبذل قصارى جهدى للتحايل على حرفيته .

ـ هذا ما كنت أنتظره منك .

ـ ولكن خبرنى ، كيف اتجهت هذا الاتجاه المسيحى ؟ . أنت بماضى اسرتك الحافل العريق . اننى لأذكر ...

ـ وهل يحول ذلك بينى وبين الاقتناع بالحق عندما يعرض لى هذا ؟.

ـ الحق .. الحق ـ انه فلسفة جديدة ـ فلسفة هؤلاء المسيحيين ، ولكن ...

ـ انها ليست بفلسفة أو نظرية . انها الحق المجرد والواقع الصحيح . وما ان يحيط به المرء خبرا ، حتى يتصرف فى حدوده ويقتنع به .

ودخلا فى مناقشة دينية هادئة ، وخاضا فى حديث طويل دافع فيه القائد كوريو عن وجهة نظره المسيحية ، وكان كونستانتيوس يساجله فى بعض ماشاع وذاع عن معجزات المسيح وعن الخير والشر، وتصوره أنه يجب أن يكون لكل منهما اله . وحاول كوريو أن يقنعه منطقيا بأن الخير من عند الله أما الشر فمن عند الانسان الذى تنكب طريق الخير السوى . ثم عرج القيصر على أهم مابشر به المسيح ، وهو المحبة والسلام والعدالة ، وقال فى هذا معقبا :

ـ دعنا من تلك المعجزات . ان هذه المبادىء التى دعا اليها المسيح هى المثل العليا للانسانية الحقة اذا ما سادتها وطبقت

أسسها • الا اننى أرى أن ذلك من الصعوبة بمكان • اننى لا أوافق مثلا على القانون القاضى بهدم الكنائس وحرق الكتب والمخططات ولذلك سأعمل من ناحيتى على التحايل على تنفيذ هذا بقدر الامكان•

ـ يسرنى أن أسمع ذلك منك • وهناك عدالة ينقصك أن •••

ـ كلا ، لاتسترسل • فأنا أعرف ماذا أنت بقائل • لاتذكرنى بهذه النقطة السوداء فى حياتى والتى تنكبت بها طريق العدالة السليم • وبهذه المناسبة ، فاننى لم أوف لك قدرك من شكر على ماقمت به من أجلى من خمس سنوات خلت ، فى فيرلوم •

ـ لم يكن بك حاجة لأن تشكرنى • لقد فعلت ما فعلت من أجلها هى ، وليس من أجلك أنت ! •

ـ ٢ ـ

كانت العربة تسرع فى الطريق الى فيرلوم • وكانت تقل هيلينا فى عودتها بعد ان زارت قبر والدها ، كما اعتادت هذا فى كل عام ، وحيث كانت تجد المئات من الناس يحجون اليه داعين • انهم جميعا لم ينسوا هذا الملك الذى كان أبا للجميع ، ولم تمح ذكراه من قلوبهم •

وما ان توقفت العربة بباب منزلها ، حتى أقبل فافونيوس مبتسما محييا • فبادرته مستفسرة :

ـ كل شىء على ما يرام يا فافونيوس ؟•

ـ أجل ياسيدتى •

ـ هل من رسالة من ولدى ؟•

ـ كلا ياسيدتى •

وهبطت من العربة ، وحيث روفوس الذى كان ينتظرها عند باب المنزل الداخلى ـ

وارتقت الدرج وهى تتساءل عن السبب فى تأخر ورود رسائل من ابنها أو من زوجته مينرفينا ، التى كانت تكثر من الكتابة اليها

بالرغم من العناية بولدها كريسيوس ، الذى بلغ الخامسة من عمره تقريبا ، أو يرجع ذلك الى انتظارها لمولودها الثانى ؟ أم لعلها قد وضعت مولودها الثانى فعلا ؟ ترى أين قسطنطين الآن ؟ لعله عند الحدود الفارسية ، حيث لا يمكن أن يجد الرجل فسحة من الوقت للكتابة • وأخيرا رأت هيلارى يهرول لتحيتها • فسرت لمرآه ، بعد أن افتقدته فى هذه الرحلة لأول مرة • وانها لتذكر اعتذاره عن عدم مرافقتها ، وانها لتدرك السر فى تخلفه هذا • لقد ازداد اندماجا فى مسيحيته وتعمقا ونشاطا فى دينه الجـــديد • ولكنها لاحظت فى الوقت نفســـه ، أن ثيـــابه ويديه ووجهه كلها متسخة ، فلما استفسرت منه عن ذلك قال لها :

ـ لقد كنت أعاون فى اطفاء النار ياسيدتى •

ثم عرفت منه أن الحريق كان فى بيت للاجتماعات المسيحية أشعلت النار فيه قوات الحكومة • فنصحته بأن يعتدل فى نشاطه حتى لايتعرض لسخط اولى الأمر ، وبينت له مدى مافى ذلك من مخاطرة • فاستأذن منها ليغتسل ويستبدل ثيابه ، شاكرا لهـــا تحذيره وحدبها عليه •

ولما عاد ، وجدها تجلس قبالة النافذة تحدق فيما أمامها من فضاء • فى فضاء تجد بين أجوازه حقب الماضى وذكريات حيـاتها التى ملئت سعادة وهناء حينا ، وشقاء وضنى حينا آخر •••:

ـ سيدتى ••• سيدتى ••• لقد سعدت بخدمتك ستة عشر عاما طوالا ، وقد آن الأوان لأكشف لك عن بعض ما كان ينطوى عليه تفكير والدك وبعض معتقداته •

وظلت فى وضعها الذى وجدها عليه مولية له ظهرها • وأخيرا تحركت قائلة :

ـ والدى ؟• ماذا تعنى ؟!•:

ـ أسطورة الخشب الحى يا سيدتى • قصة شجرة الحياة !•:•

واستعادت ما كان يقوله لها والدها :

ـ ان فى الخشب معنى الحياة ، وفيه أيضا معنى الموت • لقـد

قدسته أجيال لأنه رمز للحياة قائما على جذوره ، وانطلقت فى أثره أجيال تبحث عن سر الحياة فيه • انها قصة لا بداية لها ولا نهاية • قصة لازمت والدها طوال حياته ، وكانت آخر مافكر فيه ودار حولها حديثه قبيل مماته :

ـ أنت وقسطنطين !•

نعم ، لقد قرن اسمها باسم ابنها قائلا :

ـ أنتما معا ستهتديان الى شجرة الحياة •

واستطرد هيلارى فى حديثه قائلا :

ـ انه لم يستطع أن يتم لك هذه القصة ، لأنه لم يكن يعرف نهايتها كما عرفتها أنا •

ـ وماذا عرفت عنها ؟•

ـ انها قصة قديمة منذ الأزل يا سيدتى • لقد سمع بها الملك كويل • سمع بها من أهل الشمال ، وسمع عن شجرة الحياة فى مصر ، فتخيلها أمامه بطريقته الخاصة ، ولكنه لم يعرف ما عرفته أنا وما سأرويه لك الآن !•••

ـ ومن ذا الذى عرفك بها ؟!

ـ ألبانوس ، الذى سمعها بدوره من القوم فى بلاد الشام عندما كان ملحقا بالجيش •

ـ اذن ، هات ما عندك ••• بودى أن أعرف تفاصيل هذه القصة ؟!•

وراح يقص عليها قصة الشجرة التى كانت بقصر الملك سليمان الحكيم ، والتى يرجع تاريخها الى يوم وفاة آدم ، حين نبتت من بين أجداث قبره • وكيف أن الملك سليمان بالرغم من واسع علمه وعميق حكمته لم يكن يعرف سر هذه الشجرة حتى قدمت لزيارته ملكة سبأ ، التى كانت تعرف هذا السر نقلا عن أجدادها وأسلافها جيلا بعد جيل ، فكشفت له عن سر الشجرة وما لها من قدسية ، مما حدا بالملك الى اقتلاعها ودفن أخشابها فى باطن الأرض بالقرب من تخوم المعبد • وملئت الحفرة ماء كانت تغتسل فيه الماشية التى تقدم قرابين جيلا بعد جيل •

وعندما حان الحين نضبت مياه الحفرة وجفت وانحسرت عن الخشب مرة أخرى •

ـ ومتى كان ذلك ؟!٠

ـ عندما آن الأوان لأكبر تضحية فى الوجود ٠ تلك التضحيه التى تتضاءل أمامها كل تضحية أخرى ولا تكون بعدها الا رمزا ٠ ومن هذا الخشب المجدب أقيم أشرف صليب فى الوجود ٠٠٠ هذا الصليب الجاف الذى سالت على جوانبه الدماء الطاهرة المقدسة فجعلت منه شجرة الحياة ٠٠٠ شجرة الحياة التى كان يحس بها والدك ولم يدرك لها كنها ٠

ـ وهل صدقت هذه الرواية ؟٠

ـ اننى أومن بما تعنيه ، أجل ٠ أومن ٠ بما قيل قبلها وما يقال بعـــدها ٠

أومن بما انحدرت اليه الانسانية من اسفاف فى الظلم وامعان فى الكفر وبعد عن نهجها القويم ٠ أومن بأن تعاليم هـــذا المسيح تنتشر من قرية الى قرية ومن قطر الى قطر حتى يظهر الحق الأكبر !٠

ثم صارحها هيلارى بأنه قد رسم قسيسا ٠ ولم تفاجأ بهـــذا النبأ الذى كانت تنتظره وتترقبه ، بعد أن اعتـــذر لأول مرة عن مرافقتها فى زيارتها لقبر والدها ٠ ولما استفسرت منه عن ذلك،سرد على مسامعها ما مر به من طقوس فى هذا الحفل الصغير الذى أقيم بالبيت الذى أشعل رجال السلطة النار فيه ٠ وأردف قائلا :

ـ كان هذا البيت بمثابة كنيسة عبادتى ٠ وكان محل عبادتنا واجتماعنا ٠

ـ ألم يعد لديكم بعد ذلك مكان تجتمعون فيه ؟!٠

ـ سنجتمع عند ألبانوس ، بالرغم من ضيق بيته ٠ وان اجتمعنا مرة فلن نستطيع أن نوالى اجتماعاتنا بصفة مستمرة خشية اثارة شكوك رجال السلطة المحليين ٠ لذلك سنحرص على تغيير أماكن اجتماعاتنا ٠

ودهش الرجل اذ سمعها تقول له :

ـ ان هذا البيت تحت تصرفكم ياهيلارى ٠ لست مسيحية ، وما أظننى ســـأكون كذلك ، ولكننى أمقت الظلم والاستبداد ٠ متى ستجتمعون غدا ؟!٠



ـ عند الفجر يا سيدتى ، لماذا ؟»

ـ لأننى سأحضر هذا الاجتماع لأرى وأسمع طقوسكم !»

وعند الفجر ، ذهبت مع هيلارى لحضور الاجتماع الذى أشار اليه فى منزل البانوس • واستقبلها البانوس وأدخلها حجرة قد اكتظ فيها المجتمعون • ولم يعر القوم السيدة الدخيلة عليهم أى التفات ، بل كانت أبصارهم معلقة بالبانوس فى خشوع وترقب لما سيقول ولم يكن بالحجرة من ضوء ، الا من هذا الضوء الخافت المنبعث من أربعة مصابيح منتشرة فى أرجاء المكان • وما كاد المقام يستقر بالمجتمعين ، حتى اقتحمت الباب عليهم ثلة من الجنود مهددة متوعدة • فأسرع البانوس يصدر أمره باطفاء المصابيح ، التى سرعان ما خمدت شعلاتها ، وعم الظلام المكان واختلط الحابل بالنابل وتعالت صيحات الجميع • وعندئذ طلب البانوس من هيلارى أن يسرع بمغادرة المكان من باب خلفى بعد أن سلمه قدحا ذهبيا أطبق عليه بيده ثم أمسك بيد سيدته وانطلقا من الباب الخلفى •

وكانت الدنيا ظلاما ، وأوغلا فى السير حتى اذا ما أصبحا على مقربة من المنزل ، اعترض سبيلهما قاطع طريق استلفت نظره بريق القدح الذهبى الذى كان يحمله هيلارى بيده • فسأله أن يسلمه اياه • ولما رفض هيلارى أن يستجيب له ، وازداد تشبثا به ، قرر الرجل أن يستعمل معه القوة • وكان المفروض أن يلقى هيلارى بما فى يده حتى يستطيع أن يقاوم الرجل بكلتا يديه • ولكنه ضم ما يحمله الى صدره ، وراح يدافع عن نفسه بيد واحدة ، الأمر الذى مكن منه غريمه • ثم أبصرت بنصل خنجر يرتفع فى الظلام ، فأسرعت الى حيث يتماسك الرجلان ، ولكنها وصلت بعد أن تمكن اللص من طعن هيلارى ثم فر هاربا • وساعدت هيلارى على النهوض من عثرته ، وعاونته حتى بلغا باب المنزل الذى فتحه لهما أحد الخدم وأسرع ليخطر فافونيوس بما وقعت عليه عيناه • وأقبل فافونيوس مهرولا وحمل هيلارى الى فراشه • ثم اندفع فى استدعاء الطبيب !

ووقفت هيلينا الى جانب فراش الرجل المحتضر تتأمله فى أسى وحسرة • ورأته يحرك أهدابه وينظر اليها شاكرا ، ثم يمد اليها

ذراعه بيده التي كان يضمها الى صدره • ولاحظت أنه يحرك شفتيه فركعت على ركبتها حتى تستطيع أن تتبين ما يقول • وكان كل ما استطاعت أن تتبينه تلك الكلمات المتقطعة :

ـ احتفظى ••• فى ••• أمين •

وكان هذا الشيء الذى يقدمه لها ، هو القـدح الذهبى بغطائه الجلدى • فمدت يدها وتناولته من بين أصابعه فى اللحظة التى فارق فيها الحياة •

وظلت راكعة بجوار فراشه مطبقة بيدها على القـدح الذهبى محدقة النظر فى وجهه الذى اكتسى بصفرة الموت ، وقد علت شفتيه ابتسامة الرضا والبراءة والطهر •

وأقبـــل فافونيوس ، وســـاعدها على النهوض ، ثم مشت الى غرفتها تنتابها مشاعر الحزن والأسى والهم الدفين • وما ان اغلقت الباب حتى نزعت عن القدح الغطاء لتجـــد فيه رغيفا من الخبز غير المخمر •

وحدثت نفسها قائلة :

ـ لقد منحنى والدى هيلارى ـ ومنحنى هيلارى هذا ـ إننى سأحتفظ به ما حييت •

ثم أعادت الغطاء الى مكانه من القدح الذهبى •

- ٣ -

ـ سيدة تطلب مقابلة القيصر •

بذلك دخل جنـــدى الحراسة مكتب ضـــابط الحرس معلنا طلب السيدة •

فرمقه الضابط بنظرة ازدراء قائلا :

ـ لعلك قد جننت ؟•

فردد الجندى ما سبق أن أعلنه لضابطه قائلا :

ـ سيدة تطلب مقابلة القيصر ! •

ــ رباه •• ماذا فعلت لتبليني برئاسة شرذمة من المعتوهين ••؟ إنك لاتفتأ تردد « سيدة تطلب مقابلة القيصر » •• وماذا أنا فاعل لها ؟ ان هذا ليس من اختصاصي • ان طلب المقابلة من اختصاص الأمناء • قل لها أن تتقدم بطلبها الى مكتب الأمناء ! •

ــ سيدة تطلب مقابلة القيصر !•

فتنازل ضابط الحرس أخيرا ، ورفع عينيه عما كان يتشاغل به ، ليرى السيدة تقف خلف الجندى مباشرة • فقفز واقفا على قدميه • وما أن تبين حقيقة شخصيتها حتى قالت له :

ــ الأميرة هيلينا • فلتذهب توا لاخطار الأمين الخاص بأننى هنا لمقابلة القيصر •

ــ سمعا وطاعة يا سيدتى •

وكان يقف خلف السيدة رجـــل طويل القـــامة فى ردائه العسكرى • وتقدم هذا خطوة الى الامام قائلا :

ــ ولتأت بمقعد للأميرة •

وأمر ضابط الحرس بمقعد للأميرة • وأسرع الجندى لتنفيذ الأمر الصادر اليه • ولما عاد الجندى بالمقعد قال فاقونيوس :

ــ وهل يليق بالأميرة أن تجلس فى مثل هذه الغرفة ؟•

وجىء بالمقعـــد فغـــادرا الحجرة •• وتبعاه الى غرفة الانتظار الملحقة بمكتب الأمناء • وجلست هيلينا مجهدة متعبة بعد تلك الرحلة التى استمرت حوالى ثلاثة أيام • ولم تستطع أن تتخلص مما يدور بخلدها من ذكريات الماضى القريب عن هذا الاجتماع الذى حضرته وما أعقبه من مقتل هيلارى • وما كان بعد ذلك من تنفيـذ حكم الاعدام فى أليانوس • لقد ساءها سماع هـــذا النبأ • ولكن لماذا ؟ لعلها قد أصبحت مسيحية ؟ كلا ••• كلا •• انها ليست مسيحية • ولكن هذه الأحداث وتصرفات رجال الدولة الحاليين تدفعها دفعا لتصبح مسيحية • ان تلك المذابح يجب أن تتوقف • ان اضطهاد هؤلاء المستضعفين الآمنين الوادعين يجب أن يوضع له حد • وهذا هو السبب فيما تحملته من مشقة هذا السفر والعلة

فيما أقدمت عليه • لقـــد رأت بعينيها وسمعت بأذنيها وتحققت مما يقع من مظالم •

وقطع عليها حبل تفكيرها ، قدوم الأمين محييا مرحبا قائلا :

ـ لقد اعتكف القيصر في جناحه الخاص منذ ساعة ، على أثر ما تلقاه من أنباء وردت اليه من ميلان مع بعض الرسل • وقد أمر بعدم ازعاجه • وبمجرد امكان الاتصال به ، سأخطره بقـــدومك يا سيدتى الأميرة • اننى جد آسف •••

ـ اننى لن أغادر هذه الحجرة قبل أن أقابل القيصر !•

وعاد الأمين من حيث أتى معتذرا راجيا أن تتغير الظروف •. وجلست هيلينا فى مقعدها وقد طافت بها الذكريات وحطت بها الى حيث تجلس فى تلك اللحظـــة تلتمس المقـــابلة فى قصر كونستانتيوس زوجها ... وهى لا تستبعد ان تطرد من هـــذا القصر . انها الزوجة المسرحة التى جحد وانكر زواجه منها . انها أم الولد الذى لم يعد والده يعترف به . انها ...

وهنا فتح الباب ، ودخل منه رجل يمشى الهوينا منحنى الظهر قليلا • رجل متقدم فى السن ، أشيب الشعر أشعثه • رجل خطت يد الزمن ملامحها على وجهه وتحت عينيه . انه كونستانتيوس •. كونستانتيوس يحمل على كاهله عبء الأيام والحكم معا .

ونهضت عن مقعدها . وكانت قد اعدت كل كلمة ستنطق بها أمامه بعد ان تنحنى احتراما لممثل الأمبراطور . ولكنها لم تنحن. بل قالت مباشرة :

ـ انك تبدو متعبا مجهدا ياكونستانتيوس . هل بك علة ؟.

ـ اننى متعب حقا من كثرة العمل .

ثم اتخذ له مقعدا فى تثاقل الشيوخ مستطردا :

ـ وانت أيضا يا هيلينا يبدو عليك الارهاق .ان ذلك بالنسبة الى أمر بديهى ، فقد بلغت الستين أما أنت ....

ـ اننى فى الخامسة والخمسين • انه عمر طويل •• طويل •• لقد حضرت لأتحدث الى القيصر فى أمور هامة •

- اذا كان الأمر كذلك ، فأنت سيئة الحظ . ان من قدمت للتحدث اليه بوصفه القيصر لم تعد له هذه الصفة !.

وابتسم لأول مرة منذ دخوله الغرفة .

فحملقت في وجهه دهشة متسائلة :

- ماذا تعني ؟.

- لقد تنازل كل من دقلديانوس وماكسيميان عن العرش وسيخلفهما كونستانتيوس وجاليريوس في الحكم !!

- اذن فأنت الامبراطور الآن ؟.

- أجل يا هيلينا . انهم يعدون الاعلان الخاص بذلك في هذه اللحظة . ولقد شاءت الظروف ان تكوني اول من يعلم بهذا النبأ بعد الرسول الذي أتى به وبعد سكرتيري الخاص .

- تلك أنباء سارة ، وهي تيسر الأمور وتجعلها اكثر سهولة .

- أي امور هذه ؟!.

وتدفقت الكلمات من فمها تحكي له ما يرتكب من مظالم ضد القوم الأبرياء الذين لاجريرة لهم غير انهم يجتمعون لعبادة ربهم . وسردت على مسامعه ما يرتكب من جرائم وما ينتهك من حرمات باسم الامبراطور . وطالبته بالغاء هذا القانون الذي أباح دماء هذه الفئة . وناشدته أن يستمع اليها لانها لا تريد لاسمه أن يبدو في صفحات التاريخ ملطخا بعار الاضطهاد . ثم أنذرته بأنه ان لم يفعل ذلك ، قامت باعداد فرق لمقاومته كما فعلت ضد حكم كاروسيوس فابتسم مداعبا وهو يقول لها :

- انك كما عهدتك لم تتغيري . هيلينا الثائرة المتدفقة حماسا . ثم تغيرت لهجته الى الجد قائلا :

- لعلك لم تنقلبي مسيحية كما فعل كوريو ؟.

- كلا . وأنا لم أعرف الا الآن أن كوريو قد اصبح مسيحيا . ترى هل سيعدم هو الآخر ؟.

- لقد كنت في حيرة عما اتبعه معه . لقد تجاوز سن الخدمة العسكرية . كما انه أكفأ من أن يقبع في عقر داره بضيعته بايطاليا .

لقد اهتديت الآن الى ما يصلح له فعلا . سأعينه محافظا لفيرلوم
-. كونستانتيوس ».

- وحيث انه من المسيحيين ، فانه خير من سيقوم بتنفيذ أوامرى .
ان المسيحيين يطيعون أولى الأمر منهم . ولذلك تتساءلين عن طبيعة
هذه الأوامر الذى سيعهد اليه تنفيذها . ان أول هذه الأوامر هو
الخاص بالغاء قانون اباحة دماء المسيحيين واضطهادهم . ان هذا
الأمر بعد الآن فعلا سنقوم بالتأكد من ذلك بعد تناول العشاء .
- أو تعنى أنك أصدرت فعلا امرك بالغاء هذا القانون الظالم ؟ .
اننى لا أكاد أصدق أذنى . ولا أستبعد هذا منك يا كونستانتيوس !».

- يا عزيزتى . لقد كان من أشق الأمور على أن أوفق بين حقيقة
ما اومن به وبين صفتى كقيصر يحكم باسم الامبراطور . ولقد
سارعت بمجرد تخلصى من هذا العائق ، الى ايقاف العمل بهذا
القانون الجائر حتى أمنع ما بعد ذلك من مظالم .

فنهضت عن مقعدها وقد برقت عيناها ببريق السعادة التى
لم تعرفها منذ عدة سنين ، وقالت له :

- اننى سعيدة . سعيدة سعادة مزدوجة : لأنك لم تنتظر لعدالة
لتحقق العدالة وتعيد الأمور الى نصابها .
- لدى أنباء سارة أخرى ستزيد من سعادتك .»
- وهل هناك من مزيد ؟.
- أو أنسيت ولدك ؟ . يا لك من أم ...
ثم أردف قائلا :
- انها تتعلق بقسطنطين . انه مرشح لوظيفة قائد بناء على
ما قام به من أعمال مجيدة على حدود بلاد الفرس !»
- قائد فى سن الحادية والثلاثين ..
- رويدك . اننى سأعارض فى ذلك !.
- لماذا ، ألصغر سنه ؟.
- كلا . لأننى أعده لشىء آخر !.
- ولكن قسطنطين لن يقبل منك أى معروف .

ـ لقد فكرت جديا فى ذلك منذ ربع ساعة فقط • اننى لم أتصور أن ظروفى ستكون كذلك فى هذا اليوم بالذات • ترد لى الأنباء باعتلائى عرش الامبراطورية ، وتشاء الظروف أن تحضرى بشأن آخر فتشاركيننى هذا العيد وتكونين أول من يسمع بالنبأ العظيم • اصغى الى يا هيلينا ، ما أظن أن قسطنطين يرفض العرش !•

ـ ماذا تقول ؟!•

فأمسك بيديها بين يديه مستطردا :

ـ هيلينا . يا عزيزتى • لقد ارتكبت أمرا نكرا من اثنى عشر عاما خلت • انه أكثر بشاعة من كل خطأ ترديت فيه • لقد كنت مجنونا بالسلطة وبالسلطة فقط • لقد كنت رجلا طموحا واسع الآمال كما تعرفين • ولذلك تذكرين آخر يوم قبل رحيلى الى روما وميلان آخر ليلة ، لقد رأيت فيما يرى النائم اننى سأصبح امبراطورا • ولما استيقظت فى الصباح كنت أذكر كل دقائق هذا الحلم وكأنها حقائق ناصعة • وتفاءلت بهذا الحلم ، ووضعت تفاصيله نصب عينى !•

ثم ترك يديها ونهض وراح يذرع الغرفة طولا وعرضا ثم عاد قبالتها واستدار لها قائلا :

ـ وما أن وصلت الى عاصمة الامبراطورية ، حتى سمعت بأنباء تمرد كاروسيوس • وقدرت أنه سيعهد الى برئاسة الحملة لتأديب هذا الرجل • ولكن قيادة هذه الحملة لم يعقد لواؤها لمن هو أولى بها • فهكذا كانت تجرى الأمور فى بلاط الأباطرة • وفشلت الحملة بقيادة فاتينيوس • فاستدعانى الامبراطور وعرض على قيادة الحملة التالية مع منصب القيصر ، وذلك بشرط أن أتزوج من ابنته • وكنت قد قضيت خمسة أعوام فى شبه ضياع أترقب الفرصة المواتية • وقدرت اننى اذا رفضت هذا العرض انتهى أمرى وتبددت كل آمالى • فقبلت • وذهبوا بى الى معبد جوبيتر لألغى زواجى منك أو لأسرحك بمعنى أوضح • وتعلمت من ذاك الحين أن أحتقر جميع هذه الآلهة التى نعبدها أصناما • فلقد ربطوا بين حياتينا فى معبد جونو ، ثم فصموا هذا الرباط فى معبد

جوبيتر ... ثم تزوجت من تيودورا . ولقد أجرموا فى حقهـا بأكثر مما أجرموا به فى حقى أو فى حقـك ، لأننى لم أكن أحب تيودورا ... لقد رزقت منها بسـتة أطفال ، بين بنين وبنـات . ولكننى لم أتوسم فى أى منهم القدرة على ما كنت أعدهم له . ولم أر فى ولدى الأكبر منها ما رأيته فى قسطنطين . ان قسطنطين له شخصيته ومزاياه وكفايته . وأنا بحاجة الى تعيين من يخلفنى على العرش بعد أن بلغت هذا السن وأصبحت مجهدا مكدودا كمـا ترين .

ثم عاد ليواجهها قائلا :

ــ اننى أعرف أنه ضابط كفء وأنه أب لابن قوى . ولكننى أعرف أكثر من ذلك ، أنه ابن لأفضل أم . تلك الأم التى لم أسمع عنها الا كل خير . تلك الأم التى تحملت ما تحملت من عناء فى سبيل انصاف جماعة من المسيحيين ورفع الظلم عنهم . وهى التى منعتها كبرياؤها عن أن تتحمل أية مشقة فى الحضور لمقابلتى من قبل لشأن من شئونها . هـــذه الأم هى التى يجب أن تكون أما لامبراطور روما ، بل وللأمبراطورية الرومانية بأسرها . سابعث رسولا فى طلب قسطنطين حتى يكون بجانبى . لقد رأيت الضابط السابق فافونيوس عند الباب . هل تسمحين بالاستغناء عن خدمته بضعة أشهر . لقد وقع عليه اختيارى ليقوم بهذه المهمة !.

وفتح الباب ودعا فافونيوس للدخول ، فدخل الضابط وحياه التحية العسكرية . فابتسم كونستانتيوس قائلا :

ــ هل لا زلت تذكرنى ؟.

ــ أجل يا سيدى الامبراطور .

ــ الامبراطور ؟. وكيف علمت بذلك ؟!

ــ كنت استرق السمع يا سيدى الامبراطور !.

فقهقه الامبراطور ضاحكا . ورددت الجدران أصـداء ضحكاته العالية . وقال لهيلينا :

ــ انه لم يتغير . هو هو كما عرفته دائما . ثم أحاطه علمـا بالمهمة التى سيضطلع بها . وصرفه بعد أن فرغ من ذلك .

ثم التفت الى هيلينا قائلا :

ـ انى مضطر للانصراف الآن . كما أنك بحاجة الى قليـــل من الراحة . وساعهد الى كوريو للعناية بك . يجب أن تعـــودى فى المساء ، لتطلعى على الأمر الجديد الخاص بالمسيحيين أولا ،ولتحضرى حفل اعلان تنصيبى امبراطورا حتى ولو كنت تزمعين غير هذا.. آه الامبراطورة . انها فى اكيسوليز ، لأن الجو هنا لا يناسبها . اننى أريد من بلاطى أن يبدى احترامه للامبراطورة الأم مستقبلا !. الى اللقاء يا هيلينا فى مساء اليوم .

وانحنى أمامها مبتسما وغادر الغرفة .. انحنى الامبراطور أمام المرأة التى يجلها ويحبها ويقدرها . وخرج بخطوات اثبت من تلك الخطوات التى دخل بها . بخطى أقرب الى خطى الشـــباب منها الى خطى الرجل الهرم .

واتجهت بدورها الى الباب ، وكانت تشعر بأنها فى حلم جميل سعيد . حتى الأرض التى كانت تخطو عليها لم تكن لتشعر بها . وسمعت فى كل ما يحيط بها أصـــواتا متدفقة متلاطمة تطـرق أذنيها :

ـ انك ستستعيدين كل شىء . الحب والسلطان ، ما دمت قد عشت لغيرك . لا تؤثرين نفسك ، وسيغنيك الله من فضله .

هكذا كان يحدثها البانوس .

ـ فليكن حبك له أقوى من خيبة آمالك وأحزانك. ان من شأن مثل هذا الحب أن يؤتى ثماره عندما يحين الحين . وليكن حبـــك أقوى من كبريائك ، لا تنسى هذا ، ليكن حبك أقـــوى من كبرياء نفسك ، عندما يحين الحين .

بذلك كان يحدثها الملك كويل الحكيم .

ـ بارك الله المستضعفين ، انهم سيرثون الأرض وما عليها !.

انها نسمع هذه الأنغام السماوية تطرق أذنيها من أعلى .

ولما خطت خارج الغرفة،حدق فافونيوس فيها بعينين تشعان هيبة واعجابا وارتياحا .

انها لم تكن في أية لحظة من لحظات حياتها ، وحتى في أيام شبابها الغض ، في مثل هذا الحسن والجمال . حسن الهناء وجمال السعادة ، يشعان من وجهها فيكسوانه بقناع يطغى على ما خلفته يد الزمن من آثار .

- ٤ -

جلس فافونيوس ، وقد وضع قدميه في وعاء الماء الساخن ، يشكو الى رفوس ما لاقاه من نصب في رحلته قائلا :

ـ لقد ذقنا الأمرين . وتنكرنا في أزياء العبيد . ما أجمل أن يعود المرء الى فيرلوم . الى مستقره وداره !.

ـ لقد تقدمت بك الأيام . ما هذا السحج الذي أراه . ترى هل بلغ بك التقدم في السن حدا لا تستطيع معه أن تدافع عن نفسك بدرعك . لعلك لم تعد تستطيع أن تحمله !.

ـ مهما يكن من أمر فانني لم أبلغ بعد سنك . لقد سألتني أن أقص عليك ما مر بنا من أحداث . هلا التزمت جانب الصمت حتى أستطيع ذلك ؟. آه . لقد حدثتك عن فطنة قسطنطين واسراعه بالاستئذان من الامبراطور جاليريوس في الحفل الساهر ، وعما لاحظه من نظرات اوسنبوس التي عكست عدم ارتياحه الى سفره. فتظاهر قسطنطين بالاكثار من الشراب وادعى بأن الخمر قد أفقدته وعيه . وتمكن بذلك من أن يراقب لوسينيوس في حديثه الهامس للامبراطور ، ويستنتج من هذا أن الامبراطور سيعدل عن الاذن له. وفعلا استدعى الامبراطور رئيس الحرس وكلفه بالتوجه في الصباح الى منزل قسطنطين واخطاره بالغاء الاذن له بالسفر ، وتعيينه قائدا لأحد الفيالق . ولما رأى الامبراطور جاليريوس أن قسطنطين سقط اعياء من كثرة افراطه في الشراب ، أمر بحمله الى منزله . وما أن أودعه الحراس فراشه وانصرفوا ، حتى نهض مسرعا

واستبدل ثيابه وأعددنا الجوادين اللذين وآصلنا بهما رحلتنا الى بيزنطة على أساس الاذن السابق الحصول عليه من الامبراطور والذى لم يبلغه بعد بشيء يفيد العدول عنه ، حتى اذا ما تبينوا رحيلنا فى الصباح ، كنا قد قطعنا مسافة تؤمن لنا طريقنا • وهناك تنكرنا فى زى العبيد وانضممنا الى احدى قوافل التجار حتى وصلنا الى أدرنه • وحرصنا على ألا تنم حركاتنا عما يغاير مظهرنا ، حتى أننا اضطررنا الى مشاركة غيرنا من العبيد فى طعامهم • وتسللنا من أدرنه فوق صهوة جوادين آخرين • وكانت زوجته قد سبقته اليها لتعد له عدة هربه بناء على توجيهه لها من قبل ، لأنه كان واثقا مما سيحاك حول سفره من مؤامرات •

وهكذا انتقلنا من بلد الى بلد ، واستبدلنا جيادا بجياد ، وقضينا بعض الليالى فى العراء ، وبعضها الآخر فى حظائر الماشية ، وقطعنا المسافات الطويلة فى الغابات وبين الجبال ، واعترض سبيلنا الكثيرون من قطاع الطرق واللصوص ، حتى وصلنا أخيرا الى بلاد الغال فانتهت كل متاعبنا • ألم نصبح بذلك بين ربوع امبراطوريتنا ؟ ووجدنا أن امبراطورنا المجيد قد أعد لنا وسائل الراحة وسبل الانتقال • فاجتزنا بلاد الغال فى سهولة ويسر حتى بلغنا بولونيا ومنها الى اندريده ومنها الى لندن ومنها الى هنا !»

وبعد أن رفع قدميه من وعاء الماء الساخن وتأملهما قليلا استطرد قائلا :

ـ لم يسبق لى أن قطعت مثل هذه المسافات الطويلة ممتطيا صهوة جواد بعد آخر ، مواصلا سيرى ركضا وعدوا ، حتى وصلنا الى بلاد الغال حيث لم نجد من الصعاب مثل ما صادفنا قبل اجتياز حدودها • لقد قطعنا المسافة من شرق أوروبا الى غربها فوق ظهور الجياد ، وفى أعقابنا رجال امبراطور متعطش الى سفك الدماء •• اننى جد راغب فى نوم لا يقل عن ثلاثين ساعة على الأقل ، فى فراش وثير •••

وقطع عليه حديثه صوت هيلينا :

ـ فاقونيوس ••

ونهض الرجلان وقوفا كالصبية الصغار أمام أستاذهما الكبير.

ـ ان ولدى يرغب فى مواصلة طريقه الى قصر الامبراطور فورا. فاستعد لذلك بأسرع ما يمكنك !.

ـ سمعا وطاعة يا سيدتى .

قال ذلك وكأن وجهه قد قد من صخر فابتسمت قائلة :

ـ انا أعرف كم أنت متعب . ولكنهم يعدون الخيل لكما .

ولما انصرفت التفت الى رفوس قائلا :

ـ الخيل ؟ لقد ضقت ذرعا بركوبها .. ساعتان فقط تفصل بين عناء تلك الشهور والأيام ، ثم نعود لنستأنف الركوب الى ابيراكوم ، مم خلق هذا الرجل ؟.

ـ كان الله فى عونك .

وعاونه رفوس على ارتداء حلته العسكرية وعدة سلاحه .

وفى الطابق الأعلى ، قبل قسطنطين والدته قائلا :

ـ سأخطرك بحقيقة الأمر اذا كان هناك ما يستدعى هذا . اطمئنى . انه قوى البنيان شديد الاحتمال .

ولما أومأ اليها برأسه مودعا ، خيل اليها أنها ترى والده عندما كان يلقى اليها بالتحية بهذه الصورة . من قبل واستعادت قول والدها يوم ميلاد قسطنطين وقارنت بينه وبين ما سمعته منذ قليل من فاقونيوس عندما كان يسرد على مسامع رفوس مغامرتهما معا باجتيازهما اوروبا من الشرق الى الغرب . انه سينشأ على صورة أبيه ، بل وسيكون اعظم منه قدرا . انه سيحكم كل أرض يطأها بحوافر جواده ، لقد اجتاز أوروبا ممتطيا ظهر جواده . انه امبراطورها المستقبل ، وهو معقد آمال امه وأمانيها .

وهبطت الدرج الى الطابق الأول ومنه الى مدخل الدار حيث لوحت بيدها مودعة ولدها وتابعه .

وما ان اختفيا عن ناظريها ، حتى استدارت الى رفوس قائلة :

ـ رفوس ، الى بعربة الركوب . انى ذاهبة الى ابيراكوم فى أعقابهما .

ـ الضابط قسطنطين .

بهذا أعلن ضابط الياوران قدوم الرجل الذى بلغ صوت وقع أقدامه مسامع والده ، وعرف أنها لولده قبل أن تقع عليه عيناه بقامته المديدة ومنكبيه العريضين ووقفته العسكرية ، تماما كما كان يبدو الضابط كونستانتيوس منذ ثلاثين عاما .

وكان الامبراطور جالسا فى فراشه بعد أن قضى ليلة تعرض فيها لاحدى أزماته القلبية ، التى تكررت فى الأسابيع الأخيرة .. ولقد ساوره الشك فى أنه لن يمتد به العمر حتى يرى ابنه القادم من الشرق ، وبالذات فى الليلة السابقة التى تعرض فيها لأزمة قلبية شديدة . فلما أصبح الصباح ، كان أشد ما يتوق اليه ، أن يمتد به العمر بضعة أيام أخرى يستطيع فيها أن يلتقى بولده .. وكم كان فرحه شديدا ، عندما استأذن ضابط الياوران فى مثول ولده بين يديه على اثر قدومه . وأدرك أن ولده قد وصل قبل الوقت المعين له ..

وعلى بعد ثلاث خطوات من فراش والده ، توقف الضابط الشاب وادى التحية الواجبة قائلا :

ـ الضابط قسطنطين تحت تصرف جلالتكم .

انها ثمانية عشر عاما مرت منذ أن رآه لآخر مرة ! لقد أصبح الصبى رجلا .. رجلا بكل معانى الرجولة والعسكرية السليمة .. وران عليهما صمت مطبق ، لاحظ الابن بعده أن الوالد يجاهد لكى ينحنى الى الأمام ، فأسرع راكعا الى جانب فراشه ، وشعر بيد الرجل المريض تربت على رأسه .

ـ انهض يا ولدى . ولتنس ما أسأت به اليك .. لا تدع الماضى يقف حائلا بيننا .

فأطاع قسطنطين والده قائلا :

ـ لقد فعلت ما فعلت فى سبيل روما يا والدى . لم يكن هناك معدى عن ذلك ..

ـ ان الدوافع غالبا ما تكون محل شك وريبة . ان المرء لا يستطيع أن يكون فى تصرفاته محدود الدوافع . ان معظم تصرفاته بين بين . موزعة بين الأبيض والأسود وبين الخير والشر . ويعيش المرء تحت ثقل أفكاره المضطربة المشوشة حتى يقضى نحبه فاذا ما ووری جسده الثرى ... أصبحت هذه الأفكار أو قل جهازها الفعال حيوانات حية .. مهلا . دعنى أتم ما أريد قوله . مهما يكن من أمر تبريرك لتصرفى ، وبالرغم مما كان فيه من خير لروما فانه كان تصرفا مجافيا لكل صواب . ولن يمكننى اصلاح ما أفسده الدهر . اننا نستطيع أن نعقد الأمور ، ولكننا لا نستطيع أن نعالج معقداتها . ان ما كان قد كان بصورته البشعة الظالمة . والظلم لا يمكن أن يصبح عدلا .

واعتدل الرجل واغمض عينيه قليلا ، وتبادر الى ذهن والده أن يستعين بالطبيب الذى ينتظر فى الغرفة المجاورة . وكان الرجل قد فرا ما يدور بخلد ابنه ، اذ سمعه يقول له لفرط دهشته :

ـ لا .. اننى اريد ان تكون بمفردنا . هناك الكثير مما اريد ان استفسر منك عنه . ناولنى هذه الكأس . حسن . ان النبيذ يعيد للجسم حيويته . والآن .

ـ هل تركك جاليريوس ترحل ام انك تسللت هاربا ؟.

قدم لى تقريرا مفصلا بكل صغيرة وكبيرة .

❊ ❊ ❊

عندما توقفت العربة فى ساحة القصر ، أمام الباب الرئيسى ، كان فى انتظارها عدد كبير من الخدم والموظفين الذين يحملون المشاعل . وما ان هبطت هيلينا من العربة،حتى أسرع قسطنطين لاستقبالها قائلا :

ـ كيف تسنى لك يا أماه أن تحضرى بمثل هذه السرعة ؟.

ـ وهل حضرت فى الوقت المناسب ؟.

ـ اجل يا أماه . ولكن كيف تسنى لك ذلك ؟ ان الرسول الذى بعثت به اليك ، قد غادر القصر منذ اربع ساعات فقط .

ـ لقد رأيته منطلقا فى الطريق . اننى لم انتظر أن تبعث لى

يا أحد . لقد رحلت بعد رحيلك بقليل . كيف حال .. حال الامبراطور ؟.

ـ لقد وصلت في الوقت المناسب يا والدتي . هذا كل ما استطيع قوله . انه في غاية الضعف .

ـ والامبراطورة .. ؟

ـ الامبراطورة تيودورا لم تخطر بعد . انها مع أطفالها في أكيس وليز .

ودخلت الى القصر يتبعها ولدها . والتفت جماعات عديدة من الضباط والموظفين الكبار يقفون مع بعض موظفي البلاط ورجاله ، يتهامسون ويتبادلون الأحاديث .

واتجهت أنظار الجميع الى الأم والابن وانحنوا لهما محيين ، ثم ارتقيا الدرج الى الطابق الأعلى ؛ حيث قابلهما رجال الياوران والأمناء بكل تجلة واحترام . لقد أدرك الجميع منذ ستة أشهر أن زوجة الامبراطور السابقة قد استعادت مكانتها عنده ، بعد حضورها الحفل الذي أعلن فيه نفسه امبراطورا ثانيا للامبراطور المتنازل عن العرش . كما كانوا يعرفون أن الفضل في حسن معاملة المسيحيين والغاء القوانين السابقة الخاصة باضطهادهم يعود اليها .. وكانوا يرون في دفاعها عن المسيحيين أمرا بديهيا ، لأنها بمقتضى تعاليم هذا الدين تعتبر الزوجة الشرعية للامبراطور ، حيث أن هذا الدين لا يعترف بالطلاق !.

ثم تأكدت منزلة الزوجة والابن بتلك الساعات الطوال التي قضاها قسطنطين مع والده منفردين ، بعد أن أصدر الامبراطور أوامره المشددة الى الجميع بعدم اخطار الامبراطورة حيث توجد مع أطفالها .

وقد لمست هيلينا كل ما تخلف عن هذه التصرفات والمظاهر من مشاعر في نظرات القوم التي كانت خليطا من الاعجاب والترقب والشك ، والرجاء ، وهي في طريقها مع ولدها الى غرفة الرجل المحتضر .

ولما أصبحا عند باب غرفته قال قسطنطين لوالدته :

ـ لقد طلب بأن يراك على انفراد . سانتظر هنا ».
وفي هدوء دخلت وتقدمت من فراش الامبراطور وجلست عند قدميه .. وتأملت وجهه وادركت لأول وهلة انه فى النزع الأخير .. الا أنه شعر بوجودها فتمتم فى صوت خافت وهو لم يزل مفمض العينين :
ـ هيلينا !! »
فاجابته بصوت رقيق هادىء :
ـ هنا يا عزيزى ..

فابتسم راضيا ، وكأن حضورها ووجودها الى جانبه قد أعاد له بعض مظاهر الحياة ففتح عينيه وطلب اليها أن تعاونه على الجلوس . وبعد أن عاونته على ذلك شرع يتحدث اليها قائلا :

ـ لقد سرد قسطنطين على مسامعى كل ما كان من شانه . وقد ارتحت الى ما لمسته من حديثه عن نفسه وعن تصرفاته .. انه سيستطيع أن يحمل العبء .. ولكن بمعاونتك فى بادىء الأمر أنا مطمئن مادمت ستكونين الى جانبه .. لا تنسى نبوءة والدك .. انه سيكون اعظم شأنا من أبيه ، اطلبى اليه أن يدخل .. فسرعان ما سأترككما ! .

واستدعت قسطنطين الذى وقف بجانبها أمام فراش والده ليستمع اليه قائلا :

ـ انك ستتولى الحكم .. وأنا أعهد اليك بأطفالى .. وأضع مصيرهم بين يديك .. وسأباركك بقدر ما تحسن اليهم وللامبراطورة انك ستضطلع بمسئوليات جسام !.

فأومأ اليه ولده بموافقته ثم طمأنه .. فسأله والده أن يدعو كبار الضباط والرسميين . وصدع الابن بما أمر به ، وغصت الحجرة بكبار رجال الدولة . والتزم الجميع الصمت وهم يستمعون الى ما يقوله لهم الامبراطور فى صوت خافت :

ـ انني راحل عنكم . ولعلكم تشتركون معى فى رغبة واحدة الا وهى ألا يحكم روما ورجالها الكبار أى غريب عنهم . وستجدون

فى ولدى قسطنطين بقيتكم . وستجدون فيه الشخص الجدير بوالده وبوالدته فلافيا جوليا ـ هيلينا ـ أوجستا !.

وكان لأصوات الموافقة المنبعثة من قلوب الحاضرين ، أكبر الأثر في بعث قبس من الحياة فى الرجل المحتضر حتى يستطيع أن يواصل حديثه :

ـ انى اعهد اليك يا ولدى بالحكم من بعدى . وعليك أن تمسح باولدى دموع المظلومين وتنتقم لهم ، لهولاء المسيحيين الذين يتعرضون فى جهات أخرى لكل أنواع الجور والعسف !.

ولم تتمالك هيلينا نفسها من أن تركع جاثية على ركبتيها وقد غطت وجهها بيديها .. انه يريد أن يرضيها فى آخر لحظة من لحظات حياته .. يرضيها الى أبعد حد .. يرضيها بأكثر مما كانت ترجو منه .. ورنت اليه بعينين تفيضان شكرا وحمدا وتقديرا ؟ ورأت فى وجهه كل تعابير الحب الصامت العميق .. حب العمر الذى لم تؤثر فيه الأعوام الطوال والأحداث الجسام ، انها الحياة تأخذنا مع تيارها وتجرفنا أمامها ، فلا نستشعر مرور الأيام والأعوام ، ثم نجد انفسنا وقد بلغنا الشاطىء الآخر ولم نحقق ما نريده نحن ، بل عشنا كما أرادت لنا الأقدار !.

وفى هذا الوضع لفظ كونستانتيوس انفاسه الأخيرة .. وبهذه الخواطر كانت تتأمله هيلينا .

وظلت هيلينا فترة جاثية على ركبتيها ، وقد وقف كبار القواد من خلفها فى صمت خاشعين . وكان يتوسطهم بخطوة الى الأمام قليلا ، قسطنطين . ثم بدأ الماضى يتحول رويدا رويدا لينتقل الى المستقبل فى شخص هذا العملاق القوى ، الذى استدار ليواجه الواقفين من خلفه ، وكأنه يقول لهم :

ـ أنا المستقبل !!

وراح يتأملهم واحدا بعد آخر ، وكأنه يريد أن يزن كل واحد بقدره وبقوة شخصيته وشجاعته . وكانت عيناه فى حدة نصل السيف القاطع ، وكان فيهما فجر المستقبل وبزوغ شمس الفوز الجديد .. قوة وشبابا وعزما وأملا !.

الجزء الخامس : ٣١٢ ميلادية

- ١ -

ـ خوذة فينيقية ..

بهذا علق قسطنطين على تقديم الخوذة اليه . واستطرد يقول:

ـ هل فى عثورهم عليها واحضارهـا الى اية دلالة ؟ هـل تتفاءلين او تتطيرين من مثل هذه الاشياء ؟.

وكان واقفا في مواجهة مدخل خبائه الذى نصبوه له ، وكانوا ينصبون آخر لوالدته ، التى كانت تجلس على مقعد وقد انعكس ضوء المصباح الخافت على وجهها ، وبدا له انها لم تتغير كثيرا عن ذى قبل ، لا فى ملامحها ولا فى طباعها ، ولـما لم تعقب بشىء على سؤاله استطرد قائلا :

ـ اننى سعيد بقدومك يا أماه . جد سعيد . انهـا مخاطرة منك بدون شك . ومع ذلك فانا سعيد بقدومك . انك تنهجين نهج والدك ، أليس كذلك ؟ تظهرين دائما فى اللحظات الحاسمة ! .

وظلت على حالهـا ، ملتزمة جانب الصمت لا تعقب بشىء .. واستطرد فى حديثه قائلا :

ـ اننى مدين بحياتى لحضـــــور والدك فى الوقت المناسب عندما تأزمت الأمور عند مولدى . اننى لم أنس ولن أنسى هـذه القصة ما حييت . ثم كان قـدومك الى القصر الامبراطورى فى اللحظة التى كان والدى يفارق فيها الحياة .. لقد حضرت مدفوعة بغريزتك التى لم تخطىء ابدا . وانني لسعيد بقدومك ، لأنه يتيح لى الفرصة التى كنت أترقبها للتحدث اليك فى كثير من الأمور .. ولقد كنت أعرف انك تتجنبيننى وتتباعدين عنى ، حتى اننى لم أكن أعرف أين أنت . فأين كنت ؟ . لقد كنت مضطرا ان أفعل ما فعلت يا أماه . لم يكن بوسعى غير ذلك . ولقد توقعت أن يغضبك تصرفى لأنك كنت تحبين مينرفينا . وكذلك أنا ، كنت أحبها ومازلت احبها ولـكن هذا هو شأن الحياة يا أماه . واننى لأحس الآن باحساس

والدى عندما أقدم على فعلته معك • الا أن المرء ليس حرا عندما يكون امبراطورا • انه أكثر عبودية لمتطلبات منصبه من عبيده لرقهم. ان الامبراطورية تتطلب من التضحيات الشيء الكثير ، ولكنها تتطلب من رئيسها أكثر مما تتطلبه من رجالها . انها لا تتطلب من هؤلاء الا بالتضحية بالدم . أما رئيسها ـ الامبراطور ـ فانها تتطلب منه التضحية بالروح .. بالذات .. بالهناء .. براحة القلب . لعلك تدركين ما أعنى !.

ولم تنبس السيدة العجوز الجالسة فى مقعدها ببنت شفة ولم يكن هذا الجبل المشرف على المخيم بأكثر صمتا منها . فقال بنبرات تهتز غضبا :

ـ أعرف ما يغضبك . انه ليس تسريحى لمينرفينا فقط .. انه موضوع ماكسيميان أيضا • ولكنه كان يجب أن يموت ـ لم يكن بوسعى الا أن أفعل ذلك • لعلهم لم يصارحوك بالحقيقة كلها لقد تمادى الرجل فى غيه حتى حاول رشوة بعض ضباطى المقربين وانه هو الذى أذاع بين الناس نبأ موتى الكاذب . وكنت واثقا من أن الرجل لم يتورع عند قتل ابنه من عمل كل ما يستطيع فى سبيل استعادته لرداء الامبراطور الأحمر . لقد نكث الرجل بعهده مع دقلديانوس ونكث بعهده معى . فكان من المتعين القضاء على هذا الرجل ، يجب أن تتبينى كل ذلك يا أماه !.

وجرؤ أخيرا على أن يواجهها . فلاحظ انها مغمضة العينين ساكنة لا تتحرك • فأسرع يركع عند قدميها ، ليجدها قد استسلمت للكرى كطفل متعب مكدود . ترى منذ متى كان ذلك ؟ لقد وصلت بعد انفضاض مجلس الحرب مباشرة ؟ لقد أعلن فالينتيوس قدومها وهم يتداولون فى مجلس الحرب ، فقام الضباط ليخلوا المكان للأم والابن فى هذا اللقاء ، بعد القطيعة الطويلة الأمد . وعندما انفض الاجتماع ، أحضروا له الخوذة الفينيقية التى لاحظ انها لم تزل بيده !.

ووضعها فوق احدى المناضد التى كانت مغطاة بمختلف الخرائط والخطط الحربية ، فأحدثت صوتا فتحت هيلينا عينيها

على اثره لترى ولدها راكعا عند قدميها .. فحنت عليه بعينين رأى فيهما ما كان يراه من حنان عندما كانت تحنو عليه فى المهد طفلا ..

وسرى عن قسطنطين . وابتسم فى وجهها راضيا . وردت عليه ابتسامته بأخرى أعرض منها .. وضمته الى صدرها تقبله ويقبلها .. وعاد يسألها :

ـ اين كنت يا أماه طوال هذه الفترة التى ابتعدت فيها عنى ؟.

ـ فى جولشيستر حينا ، وفى فيرلوم حينا آخر . لقد كان لدى الكثير من مهام الأمور هناك !.

وتذكر انه لم يعرض عليها شيئا تأكله. فلما عرض عليها اجابته بأنها تناولت عشاءها فى الطريق ، وان فافونيوس لم ينس هذا .

ـ انها خمس سنوات يا أماه .. ويا لها من أعوام !.

وكان يتساءل فيما بينه وبين نفسه ، عما اذا كانت ستحدثه فى موضوع مينرفينا أو فى موضوع ماكسيميان . كما كان يتساءل عما جاء بها الى هذا المكان أصلا . ثم سمعها تقول له :

ـ لقد تحدثت فى طريقى الى كثير من رعاياك . ولقد كانوا يباركوننى لأننى الأم التى أنجبتك . لقد كنت حاكما عادلا حكيما . وانى أنضم اليهم فى رأيهم ! .

ـ انك تدخلين على قلبى السرور يا أماه . لقد كنت اخشى حكمك على مدى صلاحية الطريقة التى أدرت بها زمام الحكم ! .

ـ لقد كنت أدعو لك بالتوفيق طوال هذه الأعوام . لطالما وددت أن اتصل بك وأن اراك .

ـ ولماذا تأخرت طوال هذه السنين ؟.

ـ لأننى كنت أريد أن أنفرد بك ، فانتظرت حتى تم ذلك .

آه..انها فاوستا .ان امه كانت تنفر منها ، كما كانت فاوستا هى الأخرى لا تنعطف نحوها . ان المسألة بالنسبة لهيلينا مسألة مبدأ . انها لم تكن تقر هذا الزواج. هذا الزواج من ابنة الامبراطور

ماكسيميان لدواع سياسية . هذا الزواج الذى فيه افتئات على حق الزوجة الأولى ، كما حدث ذلك من قبل معها .

ولكن .. أو تنتظر كل هذه الأعوام ، ثم تختار لحضورها هذا الوقت بالذات ؟ ما هذا الذى أتى بها الى ميدان القتال ودفعها لتحمل عناء هذا السفر الطويل ؟».

ـ لعلك لا توافقين على هذه الحرب يا والدتى ؟.

ـ قسطنطين ، ان الحرب حدث من أحداث البشرية البشعة ، وان كان ماكسنتيوس حاكم غادر ظالم . وقد ضاعف من حنقى عليه ما سمعته بشأن سوفرونيا . سوفرونيا زوجة حاكم روما التى انتحرت بطعنة من خنجرها هربا من بطش ماكسنتيوس وعسفه والتى كانت مثلا حيا للاضطهاد والجور والظلم .

ـ لقد كانت مسيحية يا أماه ؟.

ـ أجل . وان الله سيكون معك مادمت مع المظلومين .

ـ الله ! انك تعرفين يا والدتى اننى لم أتلق من العلوم غير كل ما يتصل بشئون الحرب والقتال . ولكننى بالرغم من ذلك كنت أشعر دائما بأن هناك قوة أعلى من البشر ، وأعلى منى بعد أن أصبحت امبراطورا . وكنت أتمثل هذه القوة فى الشمس مصدر الحياة على الأرض .

ـ ان الشمس جزء من الوجود .

ـ ان هناك منطق واحد يعجبنى فى عبادة هؤلاء المسيحيين ! وهو ايمانهم باله واحد . وانه لمنطق معقول يتفق مع طبيعة الأشياء . أما ماعدا هذا من معتقدات فلا اقتنع به ، ولذلك لن أستطيع أن أتبع دينك الجديد .

فلتضرب لى مثلا !.

ـ كهذا الذى يزعمون عن تجسد الله ليصبح انسانا فى شخص المسيح ، يعيش بين الناس ويضطرب فيما يضطربون فيه ويأكل من طعامهم ، ثم يصلب ويعذب . انك تطلبين منى اكثر مما يحتمله عقلى اذا أردت أن أصدق أن الله ــ تلك القوة العليا بكل جلالها

وعظمتها وعزتها ـ يتنازل ليصبح انسانا لا حول له ولا قوة ..
لا .. لا .. يا أماه ، ان الله أكبر من كل ذلك وأجل شأنا ، انه قوة قدسية لها جلالها ولها هيبتها ولها غموضها ..

ولما اعيتها الحيل معه ، فضلت أن تنسحب لتستريح !.

- ٢ -

قال قسطنطين للقائد اسكلبيوداتس :

ـ ان ما أصدرته من تعليمات رئيسية من البساطة بحيث يمكن لكل قائد أن يعيها ولا يغفل منها شيئا . أن هذه المعركة ستكون معركة أجنحة بمعنى اننا سنعول فيها على سلاح الفرسان . هل فهمت ما أقول ؟.

ـ ان كل فارس من فرسان جيشنا سيقابله ثلاثة فرسان منهم .

ـ وهل خيل اليك انني أعرف غير ذلك . أما كان من الواجب عليك ان تعرف ان فرسانهم وجيادهم ليست كفؤا ولا ندا لفرساننا وجيادنا . انهم وافرو العدد قليلو الفاعلية . انهم لا يجيدون الكر والفر . لقد أتخمتهم كثرة الطعام والشراب لقربهم من العاصمة روما . لم تبق أمامنا الا هذه المرحلة وتنتهى الحرب.

ـ مولاى الامبراطور . لقد كان لى شرف القتال معكم ومع جلالة الامبراطور والدكم . وأنا أعلم الناس بشجاعتكم واقدامكم ، الا أن العدو بالرغم مما فقده فى تورين وفيرونا يفوقنا عددا وعدة . وهو ينتظرنا في هذه المرة ويتأهب للقائنا . أن عنصر المفاجأة ليس فى صفنا فى هذا الهجوم .

ـ ليس العدد وليست العدة كل شيء ، اذا ما قيست بأشياء أخرى ! .

ـ ولا تنس يا مولاى الحرس الامبراطورى الذى يضم أحسن مقاتلى الامبراطورية .

ـ تلك الطغمة الفاسدة التي كانت تبيع الامبراطورية على مر القرون لمن يدفع لها ثمنا اعلى. وحق الآلهة لأقضين عليهم واحطمنهم تحطيما . ان لم يكن لهـذه الحملة من فضل غير القضاء عليهم لكفاها هذا فخرا • سأتولى بنفسي قيادة الهجوم ضدهم • وان غدا لناظره قريب •

ـ الامبراطور هو الامبراطور . ما علينا الا أن تؤمر فنطيع امره

وتدبر أمره ... ان هذه الحال لا تسره . وما هذا القائد الماثل بين يديه الا مرآة تعكس ما يدور بخلد غيره من قواد . ان الحرب لا تكسب بهذه النفسية ، يجب على الجندى أن يؤمن بالنصر .. أين هو الايمان والثقة بالنفس ؟• انه يجب أن يجمعهم ويلقى فيهم خطابا يشعل نار حماستهم ويعيد لهم الثقة بأنفسهم .

ـ الى اللقاء عند الفجر . اجمع لى جميع القواد والأركان ..

واستغرق فى تفكير عميق ، ان معركة الغد ستكون الفاصلة• ان ماكسنتيوس حشد له جميع قواته . انها لن تقرر مصـــيره ومصير الامبراطورية فقط ، انها ستقرر مصير المسيحيين أيضا •• انها ستقرر مصير العالم كله .

وخطا متثاقلا نحو مدخل خبائه ، حيث وجد تابعه فالينتيوس يحدق النظر فى الســماء . ولـما سأله عما يسترعى انتباهه فى السماء ، أشار الجندى بيــده الى الشمس فى أفق الغروب •• وشاهد قسطنطين عجبا ! رأى الشمس ترسل من قرصها شعاعا قويا متوهجا مزدوجا متقاطعا ..

ـ فالنتيوس ، هل رايت ما أرى ؟.

ـ أجل يا مولاى .

ـ ان هذين الخيطين يشبهان الصليب • عجبى لما أرى !!

وخطا الى الداخل ، وألقى بنفسه على فراشه مستعرضا ما أعده من خطط للقتال . ثم عاد ليستعرض تلك الظاهرة التى رآها فى الأفق عند مغرب الشمس .. وأجهده التفكير ، فغلبه الكرى .. واستسلم للنوم .



وصحا من نومه ، ووجـــد نفســه يردد ما قرأه في احدى المقطوعات الشعرية :

ـ بهذا ستنتصر .. بهذا ستنتصر .

والفى أمام عينيه مشهد شعاع الشمس الذى تمثله فى عينيه صليبا . ونادى على تابعه الذى أقبل نصف نائم ، ليرى مولاه واقفا أمام مكتبه ، محدقا النظر فيما أمامه من أوراق قائلا :

ـ اكتب ما أمليه عليك . أمر عام لقوات الجيش المقاتلة ..

وراح يملى أمره الذى ألهم به .

صحت الدنيا فى يوم ٢٨ اكتوبر على صبح رطيب تكاثفت فيه أستار الضباب . واستيقظ بمبوركس على أصوات الحركة التى دبت فى المخيم ، وحملق فيما أمامه ليبعد آثار النعاس عن عينيه ، وليرى فينوس مرتديا كامل هندامه مثبتا خوذته على رأسه .

ـ ماذا بك ؟ ان نداء الصبــاح لم ينطلق بعد . كم الســاعة الآن ؟ ان الشمس لم تشرق بعد ! !

ثم أقبل كروكاس ، وتبعه آخرون ، حتى بلغ عدد الحاضرين العشرون تقريبا . وراحوا يحدقون النظر بفيتوس الذى كان يبحث عن درعه وحسامه ، فتساءل بعضهم .

ـ ترى ماذا حل به ؟ لعله يمشى فى نومه ؟.

ـ أولى بكم أن تستعدوا . لقد حل اليوم الموعود ..

ـ ان اليوم لم يبدأ بعد . ان « النفير » لم ينطلق بعد ؟ لعلك قد جننت ! .

ـ انه اليوم الموعود . انكم تعـرفون ما أعنى . ألم تروا تلك الظاهرة عند غروب شمس الأمس ؟.

ـ ماذا ألم برجال الجيش ؟ يا لتلك الخرافات والأوهام ! .

ـ لقد كانت علامة الصليب . انه اليوم الموعود .

وسمعوا أبير ينفخ فى الصور .. ووصلت الى مسامعهم دعوة الداعين بسرعة التأهب والاستعداد . ثم دخل أبير عليهم الخيام

يصحبه جندى يحمل جرة بها سائل أبيض . ولاحظ الجميع أنه قد خط على خوذته صليبا أبيض مستعرض الخطوط . ثم قال لهم

ـ بامر جلالة الامبراطور ، يجب على كل محارب أن يرسم الصليب على خوذته وعلى درعه فى دقة وعناية .

وتقدمهم فيتوس صادعا بالأمر فى جلال وقدسية . وتردد الآخرون متسائلين عن السر فى هذا الأمر . فقال أحدهم :

ـ لعل الامبراطور قد تفاءل من آشعة الصليب عند الغروب .

فقال لهم فيتوس :

ـ أجل . وانها وأيم الحق لعلامة النصر .

ـ ان فيها لسحرا !.

ـ انها سحر العالم كله . انها علامة النصر ، انها دلالة عصر جديد ، لقد سبق ان أخبرتك بذلك يا كروكاس وأنت يا بمبوركس عندما كنا نعبر جبال الألب كنا نحلم بأننا سنسوقهم أمامنا سوق الأنعام .. انه معنا .. انه القوة الخارقة العليا الذى لا يقف فى وجهه شىء . لقد انتهى أمر ماكسنتيوس !.

فقال له بمبوركس :

ـ هل رأيتهم ؟ انهم هناك على ضفاف التيبر . انهم يبلغون ثلاثة أضعاف عددنا .

ـ حتى ولو كانوا عشرة أضعاف عددنا . لقد انتهى أمرهم !

وآثر بمبوركس ان يسرع بتنفيذ الأمر الامبراطورى ، وحذا حذوه سائر الجند والضباط . وخرج فيتوس من الخباء ليرى المئات من الجند وقد رسموا على خوذاتهم ودروعهم علامة الصليب بالسائل الأبيض !

وسرت فى المعسكر حركة غير عادية . ونادى الضباط من بعيد بالنداء العسكرى لينتبه الجميع . واصطف الجنود على

الجانبين يفسحون الطريق لركب الامبراطور القادم لتفتيش الطابور كما تقضي بذلك التعليمات العسكرية قبل الهجوم • ووقفت القوات تتأمل القادمين فى الطليعة ، فرأوا أنهم جميعا قد وضعوا عـلامة الصليب على خوذاتهم وعلى دروعهم • ثم أقبل الأمبراطور وسط حرسه الخاص من الضباط ، الذين رسموا العلامة المقدسة بسائل الفضة تمييزا لهم • أما الأمبراطور فقد رسمت العلامة على خوذته ودرعه بماء الذهب الخالص • وبدلا من أن يرى رجال الجيش حامل العلم بنسره المعهود ، رأوا فى مكانه علامة الصليب موشاة بالحرير •

الجزء السادس : ٣٢٦ ميلادية

- ١ -

من الامبراطور ، صاحب الجلالة المعظم قسطنطين بعون مخلص البشرية يسوع المسيح ، امبراطور العالم الرومانى من بريطانيا الى فارس ومن نهر الدانوب والراين الى نهر النيل .. الى المبجلة فلافيا جوليا هيلينا ، مع تحيات واحترام والدها الخاضع المطيع للوالدة المقدسة المعظمة ..

لقد مرت ثلاث عشرة سنة تقريبا منذ ان اقتحمت قواتنا التى باركتها دعوات والدتنا وقداستها علامة المسيح بن مريم وذكراه الخالدة بكل جدراة وفخر أبواب روما .

ولم تمر هـذه المدينة فى تاريخها بمثل ما مرت به من نصر لايضارع حققته قواتنا ضد العدو الذى كان يفوقها عددا وعدة .

ولقد كان من حسن التوفيق ان نتبع فى مسلكنا ارشـادات وتوجيه والدتنا المبجلة ، التى بصرتنا بوجوب استعمال الحلم مع أعدائنا المنهزمين ، ونشر روح المحبة فى جميع أرجاء الامبراطورية والتى بفضلها شـيدنا المنشئات المختلفة لرعاية اليتامى والأرامل والعجزة ، فضلا عما أقيم من محلات للعبادة . ونخص بالذكر منها الكنيسة الذهبية فى انطاكية وكنيسة الاثنى عشر حواريا فى مكان الرسالة . . وكان من المفروض بعد كل ما وضحته لك من أسباب الأمن والاستقرار ، أن ننعم فى هدوء بثمـار جهـد هذه السنين الطوال . لولا هذا الأمر الذى يقض مضجعنا ويضيق به صدرنا ، وهو الذى حفزنا للكتابة لوالدتنا المبجلة لنحيطها علما بكل مايحيط بهذا الظرف الطارىء من ملابسات ، نرجو أن تكون محل تقديرها وعطفها .

ولعل والدتنا المبجلة تذكر مدى ما بذلناه من عنـاية بتعـليم وتنشئة ولدنا الأكبر كريسبوس .

ولقد أحطناه بكل ما يجب أن يتوافر له من رعاية ٠ وقدرنا له روحه العسكرية ومواهبه العالية فأسبغنا عليه من عطفنا الكثير ، واصدرنا أمرنا بتعيينه قيصرا ، وهو لم يتجاوز بعد السابعة عشرة من عمره ٠

ولقد برهن بحق عن جدارته بهذا المنصب ، سواء فى ادارته لشئون بلاد الغال بكفاية ودراية ، أو فى مشاركته فى الحرب ضد الطاغية لوسينيوس ومساهمته فى احراز النصر على قواته ٠

غير أنه قد اتضح لنا بعد ذلك أن هذه الانتصارات كان لها رد فعلها السيء فى اشاعة الغرور فى نفسه ، هذا الغرور الذى نفخ فيه بعض أتباعه المغرضين واستزادوا منه ٠ ولقد كنا لا نحرك ساكنا ازاء ما يرفع الينا من تقارير الواحد بعد الآخر عن نزواته وآرائه المتطرفة ٠ ولقد تناولنا هذه الأمور برفق وعطف أبوى ٠ ولكنه لم يرعو ولم يستجب لتوجيهاتنا ، مما أدى الى اننا رأينا أنه من الخير له ولنا أن ننقله الى احدى وظائف البلاط ٠

وقد جد بعد ذلك ما ضاعف من خطورة الموقف وزاده صعوبة ٠ فقد نمى الينا من مصادر موثوق بها ، أن القيصر الشاب ، وقد أعمته أطماعه ، كان يدبر مؤامرة ضد العرش وضد حياتنا ٠ وانه ليحز فى نفسى ان تضطرنى الظروف الى سرد مثل هذه الأفعال الشائنة ، وما استتبعته من اجراءات اقتضتها المحافظة على كرامتنا وعلى سلامة الامبراطورية ٠

وكما تعودت دائما ، عندما تواجهنى مثل هذه المشكلات ، وعندما أكون بسبيل اتخاذ قرارات خطيرة ، سارعت بالكتابة اليك مستلهما منك الوحى ومسترشدا بتفهمك العميق لكل ما يستشكل على أمره ٠

حرر فى روما فى شهر يوليو من السنة السابعة والسبعين بعد الألف من تشييد المدينة ٠ قسطنطين ٠

ذاك كان هو الخطاب الذى تلقته هيلينا على أثر عودتها ، بعد زيارة قبر والدها الى منزلها الصغير فى كامولودونم ٠ ولقد تنبأت كعادتها دائما ، وهى تتسلم الرسالة من المبعوث الامبراطورى ، أنها تحمل اليها ما لا يسر من أنباء ، بل ولقد اشتمت من الرسالة وهى

تقضها رائحة الموت . ترى موت من ؟ قسطنطين ؟ انه لم يزل صحيحا معافى . اذن فمن عساه يكون ؟ . وما ان اطلعت على الرسالة ؟ حتى القت بها على الأرض ، وهى تلعن هؤلاء الوشاةالذين أفسدوا ما بين الأب وابنه . ونادت فى عصبية ظاهرة :

ـ تيرينتا !!

فما أن مثلت الوصيفة من بين يديها حتى أصدرت اليها أمرها باعداد عربتها وحقائبها :

ـ اننا ذاهبون الى روما . أجل الى روما ولا تلحى على بالسؤال أخطرى أندريدا ورجال السلطة بالميناء لاعداد سفينة نبحر بها الى بغيتنا . سنعبر القناة الى فرنسا ، ثم نقطع المسافة برا . هيا أسرعى !

وأسرعت الوصيفة ، وهى تعجب من أمر هذه السيدة التى تجاوزت الرابعة والسبعين من سنى حياتها ، ولم تؤثر فيها تلك الأعوام بطولها التأثير الذى يحد من نشاط الآخرين .

ولم تقلع فى طريقها الى روما عن التفكير فى أمر كريسبيوس . الذى كان صورة طبق الأصل من جده . كريسبيوس الشاب القوى الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، كريسبيوس هذا يتآمر على حياة والده وعلى عرشه ! كيف سمح قسطنطين لنفسه أن يصدق مثل هذه المفتريات عن ولده ؟ ليس هذا من خلق ابنها . انها ظاهرة لا تتفق وما جبل عليه . انه واقع تحت تأثير غيره . ولم يكن من الصعب عليها أن تهتدى لمصدر هذا التوجيه الآثم . انها فاوستا بدون شك . انها تعرض كريسبيوس لماتعرض له كى يفسح الطريق أمام أطفالها . وانها لا تريد أن يتعرض ابناؤها لما تعرض اليه أبناء الأمبراطورة تيودورا من قبل ؟ وأن يرث الأبن من الزوجة الأولى عرش الأمبراطورية ، كما ورث زوجها العرش عن والده .

وكانت ترجوان تصل قبل فوات الأوان . ان الافعى بعد أن تنفث سمومها ، ستتعجل نهاية ضحيتها .

***

ـ آسف يا مولاتي ، لقد وصلت متأخرة .

بذلك كان الاسقف اوزيوس يلقى بالنبأ المفجع على مسامع الامبراطورة الأم .

ـ لقد قتل القيصر كريسبوس في بولا من أسبوع مضى . لقد بذلت اقصى ما في وسعي لأحول دون هذا . ولكن الأمبراطور على خلاف العادة لم يستجب لي في هذه المرة . لقد كان يرفض أن اناقشه في ذلك ، بالرغم من منزلتي عنده .

ولم تختلج خالجة في وجه الأمبراطورة الأم . بل ظلت جالسة في سكون وصمت مسندة يديها على عصاتها . وراحت تردد بعد قليل :

ـ نفذالسهم . لقدحرصتعلى ان اصل الىهنا في اقصر وقت ممكن . وبالرغم من ذلك وصلت متأخرة !.

ـ لقد وقع ذلك منذ اسبوع يا سيدتي . لم يكن من الممكن ان تصلي يا سيدتي في الوقت المناسب ابدا . انك لم تقصري في شيء .. لقد قمت بما يجب عليك بقدر استطاعتك .. اننا لا نستطيع أن نمنع وقوع ...

ـ وقوع المحظور .. لم أكن أصدق أن نبوءة والدى ستتحقق بمثل هذه السرعة .. لقد قال عند ولادته :

ـ انه الموت بالنسبة لولده ..

ـ والغبطة لأمه لعلك لم تنسي الشطر الأخر من النبوءة ؟. متى ستقابلينه ؟.

ـ لم يعد هنالك اى داع للعجلة . بعد أن علمت بما حدث منك . وبما توجهت باكر لمقابلته .

ثم اتكات على عصاها وهي تميل الى الأمام متسائلة :

ـ خبرني . ما هو رأيك في هذه المؤامرة ؟ هل تآمر الابن على العرش وعلى حياة والده حقا ؟.

ـ على حياة والده ؟ انني لم اسمع بشيء عن هذا القبيل ، ولئن كنت قد سمعته لما صدقته . حقيقة أنه كان شابا له مطامعه وآماله ولكنه لم يكن ليتآمر على حياة أبيه . لا . لا . انني لا أصدق شيئاً عن هذا القبيل ، من ذا الذي أنبأك بذلك ؟

ـ الامبراطور في رسالته التي بعثبها الي . ولقد أخبرني بذلك في صورة الواثق المتأكد من الأمر .. وانك لتعرف خير المعرفة من هو المسئول عن تسميم أفكار الامبراطور !.

ولاذ الأسقف بالصمت . فقالت له هيلينا :

ـ ان صمتك أكثر فصاحة من كلامك .. لا أريد أن أسمع رأيك .

ثم نهضت من مقعدها ترتجف في كمد وغيظ قائلة :

ـ سيدي الأسقف ، فليغفر لي الله .. لقد فشلت في تحقيق رسالتي في هذه الحياة !.

ونهض الأسقف بدوره قائلا :

ـ كيف تقولين هذا يا مولاتي ؟ انك من يرجع اليه الفضل في كل هذا الأمان الذي ينعم به المسيحيون . اننا نعيش دون خوف أو وجل . لقد ردت الينا حقوقنا الادمية على يديك .. آدميتنا المهدورة !.

ـ وماذا يجديني اذا ما وضعت العالم كله في كفي ، في وقت فقد فيه ابني روحه . انني أم .. لقد سرح هذا الابن زوجته الأولى في سبيل أطماعه . ثم قتل والد زوجته الثانية في سبيل العرش . وأخيرا ها هو ذا يقتل فلذة كبده .. ترى أي مخلق هذا الذي انجبته ؟.

ـ سيدتي . سيدتي !.

ـ هل تصلح هذه اليد الملطخة بالدماء لأن تقيم مملكة يسوع المسيح على الأرض ؟ ترى هل كنت أعد للعالم شيطانا رجيما ، لا ملكا رحيما ؟!.

فسألها الأسقف أن تعود وتتخذ لها مجلسا قائلا :

ـ انك جد متعبة ياسيدتى ، والا لما كنت تعوهت بمثل ماسمعته منك الآن . لقد جانبك الصواب فيما تحدثت به . انك لست مسئولة عن النفس البشرية وما سويت به . ثم ان هذه النفس ليست معصومة من الخطأ . لقد أخطأ القديس بطرس نفسه ، وكان فى الوقت نفسه موضعا لتقدير المسيح ، وعلى صخرة قبره بنيت كنيسته ! لقد ولدنا وولدت معنا الخطيئة . اننا لسنا منزهين عنها .. ولم تخل النفس البشرية من شوائب الجشع والأنانية والميل الى العنف والتجبر . ان النفس البشرية ان تنزهت عن كل ذلك وتطهرت من أدرانها عادت بنا الحياة الى أرض النعيم والجنة مرة أخرى . لقد مرت بالعالم آلاف السنين وهو على هذه الحال ، وان أمامه أضعاف اضعافها ليستعيد عهد النعيم الأول . لقد رأيت بشائر هذا العهد ، وقدر لك ان تكونى الوسيلة لتحقيق الكثير منه . انني رجل واقعى يا سيدتى ، لا أحب أن ابتعد عن الواقع كثيرا . لقد حققنا الكثير ولم يزل امامنا اكثر منه . ان قوة الشر فى عنفوانها ، وما أظنها الا باقية كذلك لآلاف السنين . ان الله يحب أن تترك مثل هذه الأمور لسنة التطور . لقد كان بوسعه أن يقضى على نوازع الشر فى طرفة عين ، ولكنه لحكمة الهية يريد أن يدع الانسان لنفسه ولتوجيهات عقله الذى يعد منحة الله الكبرى لبنى الانسان » .

واقبل أحد الاتباع لاهثا وهو يقول للأسقف :

ـ معذرة يا سيدى ولكن الأمر عاجل هام . لقد وفد رسول من قبل الأب تيميون لاخطارنيافتكم بأن جميع المقابلات والاجتماعات فى القصر قد ألغيت .. ان الامبراطور يرفض مقابلة أحد !.

ـ ولماذا ؟ ما هو السبب فى هذه الأوامر الجديدة ؟.

ـ يقولون ان الامبراطورة قد توفيت فجاة !.

فنهضت هيلينا وصحت من تأملاتها قائلة :

ـ هيا بنا الى القصر .. هيا بنا فورا . وكان وجهها شاحبا وقد بدأ من عينيها بريق العزم الأكيد .

- ٢ -

فتحت أبواب القصر واحدا بعد آخر ، أمام السيدة العجوز المتكأة على عصاها السوداء . ولم يجرؤ أحد على اعتراض سبيلها ، وهى تتقدم بخطوات ثابتة فى ردهات القصر ودهاليزه .

وكانت كلما تقدمت بضع خطوات ، تخلف عنها من كان يتبعها من ضباط الحرس وموظفى القصر . حتى الأسقف أوزيوس وتابعة كانا آخر من تخلف عنها لتقطع المسافة الباقية الى غرفة الامبراطور بمفـردها . ان أحـدا منهم لم يجرؤ على الاقتـراب من غـرفة الامبراطور .

وما أن أصبحت أمام باب الغرفة الامبراطورية ، حتى تلاقت حربتا الحارسين الواقفين أمام الباب ليحولا دون دخول السيدة الغرفة . فرفعت عصاها الى نقطة التقاء الحربتين لتفرق بينهما فى اصرار ونظرات ثابتة آمرة ، حدت بالحارسين الى الاعتدال فى وقفتهما وتأدية التحية العسكرية لها ، بعد أن أدركا خطأهما .

ودلفت السيدة الى الغرفة لتجد رجلا مستلقيا على الفراش الموجود بها ، ما ان شعر بقدومها حتى هب ناهضا وهو يقول :

ـ أماه !

الامبراطور العظيم قسطنطين يعود طفلا يفزع الى ذراعى أمه .

فأسرعت اليه تعيده الى فراشه فى رفق وحنان . وشعرت بيديه وذراعيه يتشبثان بها كما يتشبث الغريق بمن يحاول انقاذه . وسمعته يتمتم بكلمات لم تتبينها أو تدرك لها معنى ، لأنه كان يدفن وجهه فى طيات معطفها . وبعد قليل أدركت انه يقول لها :

ـ لقد قتلتها يا والدتى ، قتلتها .. قتلتها يا أماه !

وأحست بقلبها ينقبض ، وبرعدة باردة تسرى فى أوصالها .

الآن ، فهى لم تخطىء فى حدسها . انها دائما تشعر بالأمر قبل وقوعه . انها تحس بكل شىء وبكل ما يدور حولها . بل انها تنبأت بذلك قبل يوم زواجهما . هذا الزواج الذى لم ترض عنه . فرحلت قبل أن تشترك فى مراسمه .

انه وان كان فاتها أن تحضر فى الوقت المناسب بالنسبة لكريسبوس ، الا أنها حضرت فى الوقت المناسب بالنسبة لقسطنطين . تلك هى الأقدار . الأقدار التى رتبها الله وجعل لكل منها حدا . لقد حضرت لتنقذ حفيدها . ولكن الأقدار قد رتبت لها السبب لتحضر ، ولكن لتنقذ ابنها . ولم تعقب بشىء على ما سمعت . بل راحت تربت بيدها على الرأس التى أسلمها صاحبها اليها ووجدت الهدوء بين يديها .

وبعد ان استطاع أخيرا أن يتمالك نفسه ويجلس بين يديها ، تأملت وجهه فى حنان الأم الجزعة ، وهالها ما تبينته فيه من هم وغم ، خطتها يد لا ترحم ولم ترفق به .

ـ اخبرنى بكل شىء يا ولدى .. بكل شىء !

واقتضى منه ذلك جهدا كبيرا . لقد وجد الامبراطورة فى أحضان أحد الخدم .

ـ لقد استبد بى الأرق بعد موت كريسبوس . وتوجهت اليها لأستفسر منها عما اذا كانت واثقة مما أخبرتنى به عنه ، فلقد صارحتنى بانه حاول معها أمرا نكرا ..وأثارتنى ضده بانه وعدها بأن تعيش كملكة عندما تعاونه فى القضاء على ، وتحدثت الى ولدى بما قالته لى فانكر وأنكر مؤكدا كذبها فيما قالت . ولكننى لم أصدقه . لم أصدقه لأننى كنت قد سمعت عن أطماعه من قوم آخرين ، فقارنت هذا بذلك .. ودخلت لأسمع منها مايريح ذهنى المكدود فوجدتها كما قلت لك ، وقتلت العبد الحقير من فورى ، ثم أمرت باعداد حمام ساخن للامبراطورة ، حمام ساخن تبلغ حرارته حد اذابة ذنوبها فى مائه المغلى . وهكذا قضت نحبها .. أماه ، لماذا قدر على أن ارتكب كل هذا .. لماذا كان يجب ان اقتل

ماكسيميان ؟ . ومن بعده كريسبوس ؟ ثم فاوستا أخيرا .. لماذا ؟ لماذا يا أماه ؟

فانت هيلينا انين الموجع . وطالبت ولدها بالهدوء . ثم سمعته يستطرد قائلا :

ـ انه ليخيل الى احيانا أننى لم أرتكب كل هذه الأخطاء ؟ انه شخص آخر ويد أخرى !

فرفعت وجهه اليها بين يديها ، وثبتت عينيها فى عينه قائلة :

ـ اذا لم تتحمل مسئولية آثامك ، فلن يتأتى لك أن تضطلع بعمل الخير . ان ما فعلته فعلته بارادتك ولن تستطيع أن ترجع فيه . لا تحاول ان تلقى بعبء اللوم على عاتق غيرك ، ولا تلومن الا نفسك . ليس امامك الا أمر واحد يمكنك أن تفعله .

وتوقفت قليلا قبل أن تواصل حديثها . انه ابنها وفلذة كبدها . وعليها أن تضغط قليلا على مشاعرها . انه يمر بأسوأ لحظات حياته كلها . وهذا الرجل الذى بلغ الخمسين من عمره هو امبراطور العالم الرومانى قاطبة . انه رمز أمانى امبراطورية بأسرها . انه المجد والنصر والعظمة لها . انه الامبراطور الذى حكم الشرق والغرب ، وواصل رسالة والده وأعاد للمسيحيين حقوقهم وآدميتهم المهدرة . فقالت لى لتزيل عن نفسه ما بها من جزع .

ـ لن تسأل عن قتل الامبراطورة . وذلك لأنك رئيس الدولة وراس الأسرة المالكة ، الذى لا يسأل قانونا عن تصرفاته . وحتى لو لم تكن فى منصبك هذا ، فان القانون لا يعاقب من يجد زوجته فى هذا الوضع ويقتلها . ان الأمر قد تجاوز حد المساءلة الدنيوية عن تصرفاتك أو محاولة تبريرها . ان ما وقع منك قد انقضى أمره وأصبح ماضيا سيلتصق باسمك ويشوب أمجادك فى عين التاريخ التى لا ترحم . وليس أمامك الآن لتريح ضميرك وتطهر نفسك غير أن تكرس حياتك لخدمة الله واعلاء كلمته فى الأرض ، فتذهب حسناتك بسيئاتك .

ثم أمسكت عن الكلام قليلا ، وراحت تستعرض ما قاله لها والدها عند مولد ابنها ، وما تحقق من ذلك كله على مر الزمن ، الا تلك النبوءة الخاصة بأنها مع ولدها هذا ستوفق الى العثور على شجرة الحياة . وشجرة الحياة هى صليب مخلص البشرية وضحية ظلم الانسان لأخيه الانسان . وأطرقت برأسها قليلا قبل أن ترفعها قائلة :

ـ يجب أن أعثر على الصليب ، الصليب الحقيقى !.

ـ أماه ، لقد اختفى هذا الصليب منذ وفاة المسيح . كيف تأملين فى ...

فقاطعته مبتسمة :

ـ اننى سأعثر عليه يا ولدى .. وكل ما أطالبك به أن تزودنى بسلطات مطلقة ، وأن تضع تحت تصرفى السفن والرجال والمال وكل ما يلزم لهذه المهمة .

ـ انك تستمدين سلطانك من قوة أعلى . ان كل امكانيات الامبراطورية تحت أمرك .

ـ وبذلك ستمحو حسنتك هذه كل ما ارتكبت من سيئات فى عين التاريخ . أما الله فهو وحده الذى يملك المغفرة والمثوبة .

- ٣ -

اسقط فى يد الأب مكاريوس اسقف أورشليم ، عندما تلقى تلك الرسالة الامبراطورية ، التى تحمل اليه نبأ رحيل الامبراطورة الأم الى الأراضى المقدسة واعتزامها الاقامة بأورشليم . وفيها أمره الامبراطور ـ بصيغة مهذبة لبقة ـ أن يعاون والدته فى مهمتها التى رحلت من أجلها ، الا وهى تشييد كنيسة على جبل الجلجثة والعثور على الصليب الحقيقى ، الذى صلب عليه المسيح ، الصليب المفقود منذ أكثر من ثلثمائة عام .

كنيسة أعلى قمة الالم . فوق جبل العذاب حيث صلب المسيح . ان احدا من أورشليم لم يكن ليعرف اين توجد هذه البقعة المقدسة على وجه التحديد . ان أورشليم محاطة بعدد من الجبال والتلال التى يحتمل لأى منها أن يكون جبل كالفارى أو جبل الألم والعذاب منذ ثلثمائة عام مضت .

أما عن الصليب الحقيقى فليس ثمة اى امل فى العثور عليه . فمن أين يبدأ ؟. وممن يتحرى عن ذلك ؟.

ان لديه من المهام الكثير ، مما يشغل يومه من شروق الشمس الى غروبها . أو كان ينقصه هذا العبء الجديد من البحث عن شيء اختفى ولم يظهر له أى أثر منذ مئات السنين !.

ان عليه أن يواصل تحرياته ويتصل بكل ذى شأن فى هذا الموضوع ، لعله أن يهتدى الى ما ينير له الطريق . وعليه أيضا أن يشرف بنفسه على كل هذه الأبحاث ونتائجها حتى لا يشوبها شيء من ادعاء المدعين وعدم تمكن المشيرين والباحثين .

وما ان وصلت الامبراطورة الأم الى اورشليم حتى قلبتها راسا على عقب . لقد جاءت يصحبها العشرات من الخبراء والباحثين الذين تفرقوا فى طول البلاد وعرضها منقبين باحثين مستجوبين .

ولم يصل هؤلاء الا الى كل خبر متناقض ومعلومات متعارضة ؟ وكان هذا هو النتيجة الطبيعية لتعدد مصادر تلك التحريات وتباين المتطوعين بها . ولم يرض أحد ممن سئل من القساوسة ورجال الدين ، أن يقول لا أدرى .. بل كانوا يحرصون على الادلاء بأية معلومات مكابرة وحبا فى ارضاء الامبراطورة التى قاربت السادسة والسبعين وكانت فى نشاط وحيوية رجل الأربعين .

ولكم قضت من الساعات الطوال على منحدرات جبل الزيتون منقبة باحثة بنفسها ، مصلية متعبدة ضارعة. ولقد تسببت بكثرة حركاتها فى الكثير من الحرج لرجال الأمن فى أورشليم . حتى ان رئيس البوليس سليشيوس ، توجه لمقابلة الأسقف مكاريوس وقال له :

ـ الا يمكن أن تضع حداً لكل هذا ؟ . اننا لا ننام الليل . لقد ضقنا ذرعا بكل ذلك . انها تخرج اثناء الليل متسللة دون أن نحاط علما بتحركاتها . انها تعتقد ان مرافقة الحرس لها يباعد بين الناس وبين التبسط معها فى القول . لقد بدأت أشعر بالحرج والارهاق .

ـ اعرف ذلك . واعرف اننا نمر بفترة استثنائية . ان الأمر يزداد تعقيدا وصعوبة ، بكل تلك الأقاويل المتضاربة والمزاعم البعيدة عن الحقيقة .

ـ أما كان من الأوفق يا سيدى أن تصارحها بحقيقة الأمر .. حتى تدرك الامبراطورة الأم ان هذا البحث لن يجدى فتيلا . ان الجبال المحيطة بأورشليم لا تقل عن ثمانية . أن مئات من العمال تجرى حفرياتها فى قمم هذه الجبال ومنحدراتها . ثم اذا سلمنا جدلا بأنها ستهتدى الى مكان هذا الجبل ، فهل ستتمكن بعد هذا من العثور على الصليب ، انك لتعلم أكثر منى بأن هذا من الأمور المستحيلة .

ـ من يدرى ؟ يؤسفنى أن أصارحك بأنه ليس فى مقدورى مساعدتك . انها قوة خارقة لا يمكن مقاومتها ، وعزيمة من حديد لا تلين ، لماذا لا تحاول أنت أن تقنعها بذلك .

***

لم يبق من الجبال المحيطة بأورشليم الا جبلان لم تطأهما بعد اقدام الامبراطورة الأم . أحدهما قد اكتسى بالعشب والأزهار ، والآخر قد انتثرت فى جنباته بقايا معبد متهدم قديم . هذا المعبد الذى شيده من مئات السنين الامبراطور ادريان . انه معبد الآلهة فينوس ، معبودة الرومان قديما . وكان سيمون ، الصبى العاجز الذى ارتضته الامبراطورة دليلا لها ، مسترسلا فى حديثه عن هذا المعبد ، ولكنه توقف فجاة عندما لاحظ ان السيدة لا تصغى اليه . ورفع بصره اليها ، فوجدها ساكنة فى مكانها لا تتحرك . تتأمل التل بخرائبه ، وقد كست حبات العرق جبينها . وخيل للصبى أنها متعبة او مريضة ، وتأملها جيدا ورآها تحدق النظر فيما أمامها بطريقة غير عادية .



وطال بهيلينا وقوفها . وطال بها صمتها وتحديقها فيما أمامها .
ثم بدأت تتحرك رويدا رويدا مرتقية الجبل صعودا ، في اتجاه قمته حيث توجد خرائب المعبد . وكانت تمشي على خشوع الرهبة والذكرى ، وقد ملأت أذنيها ألحان أنغام لا تعرف لها مصدرا ، تعم ما حولها من فضاء وسماء ، ومع كل خطوة من خطواتها ، كانت تسمع هزيم الرعد ، وترى الأشجار تنحنى خاشعة ممتثلة .

وعند مشارف الخرائب توقفت ، وقد شحب وجهها ، وغاضت منه دماء الحياة ، ثم رفعت عصاها في اتجاهها قائلة :

ـ تلك الخرائب يجب أن تدك اليوم من أساسها !

***

واحتشد القوم بعد ظهر اليوم التالي يشاهدون رفع بقايا المعبد وأطلاله ، وتطهير المكان من كل ما به . وكان من بينهم رجال الدولة والدين والجيش . وقد توسطت هؤلاء جميعا الامبراطورة الأم هيلينا ، وقد تعلقت أنظارها بعملية الحفر التى أعقبت تطهير القمة من خرائب المعبد . وكان الأسقف مكاريوس يقف الى جانبها ، لا تزايل عيناه الحفرة التى كانت تزداد عمقا خلال تلك الساعات الثلاث التى انقضت على وقوفهم في هذا المكان .

انه كان يعرف أن الامبراطور ادريان ، عدو المسيحيين اللدود ، قد شيد في هذه البقعة معبدا لفينوس منذ أكثر من مائتى عام . وانه لا يستبعد أن تبلغ كراهية هذا الامبراطور به حدا يحدو به لاقامة هذا المعبد ، حتى لا تصبح لهذا المكان قدسيته لدى المسيحيين . انه لمنطق معقول يكاد يقترب به من الحقيقة . وبينما هو غارق في تأملاته سمع صيحات الرجال تتصاعد من الحفرة واحدة تلو اخرى :

ـ خشب ! . خشب ! . خشب !

ورأى هيلينا مرتعدة الأوصال مرتجفة ، تسقط على ركبتيها راكعة خاشعة . وخيم السكون على المكان ، وسكنت الحياة فيه ، وتعلقت الأبصار بالحفرة المقدسة ، شاخصة محملقة مترقبة .

وحذا الأسقف مكاريوس حذو الامبراطورة ، وركع جميع الحاضرين عندما شاهدوا الرجال يرفعون الى أعلا ثلاثة صلبان خشبية .

وحاولت هيلينا أن تنهض واقفة ، فلم تستطع . واضطر مكاريوس أن يعاونها بمساعدة الدليل الصبى سيمون . وتقدمت مرتجفة الى حيث وقفت تنتحب باكية أمام الصلبان الثلاثة . ولمح مكاريوس فى يد أحد العمال ورقة من أوراق الكتابة بها بقايا حروف عبرية واغريقية ولاتينية . وأدرك من ذلك أن أحد هذه الصلبان هو الصليب الحقيقى . ولكن أيهم هو هذا الصليب المنشود ؟

وقبل أن ينتهى من تفكيره فى ذلك ، أبصر بهيلينا تحتضن أحد الصلبان كما تحتضن الأم وليدها . ثم رآها تقبض على كتف الصبى العاجز سيمون وتدفعه حتى يلتصق بذراعه المشلولة بالصليب . وشعر بلفحة من النار تسرى فى ذراعه العاجز حملته أن يبتعد عنه فى خفة القادر على الحركة رافعا يده فى الهواء .. وتأمل الجمع الحاشد ذاك المشهد ، وأيقنوا أن هذا الصليب بالذات هو الصليب الحقيقى . الصليب الذى أعاد الحركة الى ذراع الصبى الأشل . وتبادل كل من مكاريوس وهيلينا النظرات ، وانحنى الأسقف ليقبل قائم الصليب .

وحمل مكاريوس الصليب بمساعدة اثنين من القساوسة ، وتقدم الركب العائد الى أورشليم ، وهم يرددون ترانيم المسيحية فى فرحة المنتصر بعد أن عثروا على ضالتهم .

- ٤ -

- لقد استسلمت للنوم .

قالها قسطنطين فى صوت خافت !

- حدثينى بكل شىء .. بكل شىء .

واتجهت الوصيفة تيرينتيا ببصرها مرة اخرى نحو الشرفة الصغيرة التى كانت تجلس بها الامبراطورة على مقعدها الكبير مستسلمة للنوم . وكان وجهها أقرب ما يكون الى وجه طفل صغير حديث الولادة ، لا يعى مما يحيط به شيئا .

وجلس كل من الامبراطور والأسقف أوزيوس ينصتان باهتمام بالغ لما تسرده عليهما تيرينتيا فى صوت هامس خاشع ، بعد أن اطلعا على التقرير المفصل الذى بعث به الاسقف مكاريوس عن القصة بحذافيرها . وذلك لأن الامبراطورة لم تكن فى حال تسمح بالحديث معها .

ـ لقد عثروا على المسامير المقدسة ايضا ، وعلى رمح . لعله الرمح الذى طعن به المسيح فى جنبه . وتركت السيدة قطعة كبيرة من الصليب للاسقف مكاريوس ليقيم لها كنيسة خاصة ، بعد أن وضعت فى مقدس جميل من الفضة . ولقد فقد منا احد المسامير الثلاثة أثناء عودتنا بطريق البحر . ولم نستطع أن نتبين السر فى اختفائه . أما المساران الآخران ، فقد احتفظت بهما الامبراطورة معها . ولقد تعرضنا لعاصفة هوجاء فى طريق عودتنا حتى خيل الينا أن اليم سيبتلعنا . ولكن العاصفة سكنت فجأة ، واستعاد البحر هدوءه !

وأومأ الأسقف أوزيوس برأسه . لقد سرت فى روما اشاعة بأن الامبراطورة قد القت بأحد المسامير الثلاثة فى البحر عندما اشتدت العاصفة ، فهدأت العاصفة فجأة .. واستطردت الوصيفة قائلة :

ـ واشتدت وطأة المرض على الامبراطورة بمجرد مغادرتنا السفينة عند عودتنا . ولكنها اصرت على أن نواصل السفر الى روما . واعتقد انها كانت تريد مواصلة طريقها بعد ذلك الى بريطانيا .

فقال أوزيوس معلقا على ذلك !

ـ انها اعظم امراة انجبتها بريطانيا .

واستأنفت تيرينتيا حديثها قائلة !

ـ وأمرتنى بعد الظهر برفع الغطاء عن القدح الذهبى الذى كانت تحمله .

وأسرع أوزيوس يستفسر منها !

ـ وماذا كان به ؟.

ـ حفنة من التراب الأبيض اللون. وأخذت تتأمله قليلا ، واعتقد أنها كانت تصلى أثناء ذلك . ثم أمسكت بالقدح ورفعته الى فمها وافرغت ما فيه فى جوفها .

وحملق قسطنطين فى وجه أوزيوس دهشا متسائلا . فأومأ الأسقف برأسه ايماءة العارف بسر هذا التصرف .

وفجاة تأمل ثلاثتهم السيدة الجالسة على مقعدها بالشرفة ، ولم يكن هناك ما يسترعى انتباههم أو يستثير فضولهم . ولكنهم نهضوا مسرعين الى حيث تضطجع الامبراطورة فى مقعدها ، بعد أن ساورهم القلق عليها لطول سكونها .

وكانت عيناها مفتوحتين ، تحدقان النظر فى شىء أمامها ، وقد اكتسى وجهها بتعابير الدعة والحنان ، وعكست عيناها علامات الرضا والمحبة .

فاتجهت أنظارهم صوب الناحية الأخرى من الشرفة لتقع على الصليب الضخم وقد انعكست عليه أشعة الشمس الهابطة فى أفق الغروب . وبدت وكأنها تضىء بخيوطها الحمراء فى لون الدماء السائلة جنبات الخشب الحى .

« تمت »


الدار القومية للطباعة والنشر

الثقافة والإرشاد القومى

الدار القومية للطباعة والنشر

مركز الإشعاع الثقافى في العالم العربى من القاهرة

مكتبات الدار

نيويورك
لندن
الجزائر
بيروت
طرابلس
بغداد
الخرطوم
الاسكندرية
القاهرة

مجلة الإذاعة والتليفزيون

مجلة بناء الوطن







يصدر عنها

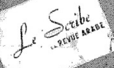
روايات عالمية | الكتاب الماسى

مذاهب وشخصيات | من الشرق والغرب | كتب سياسية

كتب قومية | في المسرح ال...

اخترنا للجندى | اخترنا للطا...

دراسات اشتراكية | رسائل جام...



El Escriba
... REVISTA ARABE

Der Schreiber